أفكار ومعانى

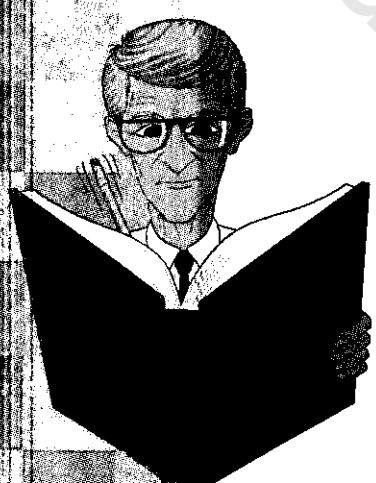

obeikandl.com

أضواء النجوم ونجوم الأضواء
لوحة بالألوان الطبيعية

حينما تلقيت هذه الدعوة للكتابة عن العلاقة المركبة بين النجوم والأضواء ، تقاطع فى عقلى مزيج من الإشـارات الحمراء والخضراء . فى الموضوع أيضا مناسبة حزينة هى رحيل الفنانة سـعاد حسـنى.. مما فجر لدى الجماهير العريضة بركانا من الحزن لم يجربوه من سنوات طويلة . لكن هذا الرحيل بحد ذاته اختلطت فيه المأساة بالملهاة .

فى المأساة فجيعة حقيقية لنجمة جمعت من الأضواء والفن وحب الناس الكثير . وبعد عشـر سنوات من الغياب المتقطع والسفر وإعادة السفر والمرض والصحة.. هاهى ذى تموت فى الغربة وحيدة ومريضة ومكتئبة ، بالسـقوط من شـرفة شقة بالطابق السادس من مبنى ضخم بمدينة لندن.. يوجد فيه ستة مصريين على الأقل ، بعضهم يعرفون سعاد حسنى من زمن . ومع ذلك فلم يعرف أحد منهم بإقامة سعاد حسنى فى نفس المبنى إلا مع ذيوع خبر موتها فى نشرات الأخبار . فقط .. توجد فى هذا المبنى أيضا سيدة مصرية لم يعرف أحد بإقامتها الدائمة السـابقة فى نفس المبنى . والآن ، بأثر رجعى ، يتبين أن سـعاد حسنى كانت تقيم فى شقة تلك السيدة تحديدا باعتبارها المحطة الأخيرة فى حياتها .

فى المناسـبة أيضا شىء من الكوميديا السـوداء . فمع حرص تلك السيدة المصرية على مصاحبة جثمان صديقتها سعاد حسنى فى الطائرة إلى القاهرة ، وفاء لها وإصرارا على أن تلازمها حتى النظرة الأخيرة ، إذ بتلك السـيدة تتحول فى مطار القاهرة من صديقة وفية إلى مشتبه فيها . البعض أفتى – كبداية .. ومن غير علم ولا معلومات – بأن سعاد حسنى لم تسـقط من الدور السـادس وإنما جرى إسـقاطها بفعل فاعل . من تلك المقدمة انطلقت الاتهامات فى شتى الاتجاهات .

هناك – ولله فى خلقه شئون – من أفتى بأن جهاز المخابرات الإسرائيلية «الموساد» له يد فى موت سعاد حسنى . والغريب أن الذين أفتوا بذلك هم من الذين يستسهلون إعطاء «الموساد» ما لا يستحقه .. وهو كثير .. بينما هم فى نفس الوقت يغضون الطرف عما يقوم به «الموساد» فعلا .. وهو خطير .

هناك من أفتى أيضا بأن أصواتا عالية من الخبط و«الرزع» قد سمعها السكان فى الشقق المجاورة بذلك المبنى المحدد ، وأن تلك الأصوات العالية استمرت لنحو خمس عشرة دقيقة وبعدها جرى سقوط (أو إسقاط) سعاد حسنى من الطابق السادس ، وأن لدى الشرطة البريطانية بلاغا من هؤلاء السكان الجيران هو بحد ذاته أحد أدلة الاحتمالات الجنائية فى موت سعاد حسنى . ولأن الكلام بغير جمرك فلم يذكر أحد اسما واحدا لأولئك الجيران الشاكين ، ولا أرقام شققهم ، ولا رد فعل الشرطة البريطانية بعد تلقى الشكاوى المزعومة . وبالتالى فالباب مفتوح لكى تصبح هذه الشرطة بدورها متواطئة فى قتل سعاد حسنى .

هناك من الأقرباء دما من استكثر على نفسه توجيه الشكر إلى تلك السيدة المصرية القادمة مع جثمان سعاد حسنى من لندن . وبدلا من ذلك حث الشرطة المصرية على إلقاء القبض عليها والتحقيق معها لأنها تخفى مجوهرات سعاد حسنى ومذكراتها المكتوبة.

كان هؤلاء الأقرباء دما لسعاد حسنى يثبتون بذلك أنهم أبعد ما يمكن عن معرفتها . فهى لم تكن فى أى وقت من هواة المجوهرات .. ولا كانت أيضا ضليعة مع الورق والقلم والكتابة والتأملات الفلسفية . كما أن عشقها للحياة وثقتها بقدرتها على الاستمرار فى العطاء الفنى يتنافى أصلا مع فكرة تسجيل مذكرات . كل المسألة أن السيدة المصرية الصديقة الأخيرة لسعاد حسنى ومضيفتها فى شقة لندن قد جاءت معها فى الطائرة بكل متعلقات سعاد حسنى وحقائبها . ولأنها رفضت تسليم تلك الحقائب إلى بعض هؤلاء الأقارب دون بعضهم الآخر.. وقررت من البداية تسليم الحقائب إلى سلطات مطار القاهرة للتصرف فيها قانونيا.. فقد أصبح التشهير بها هو الانتقام الفورى .

هناك بعد ذلك من هم أكثر شبقا وتنافسا على الأضواء مع سعاد حسنى.. حية وميتة. هؤلاء ذهبوا إلى مطار القاهرة (وفاء أو حزنا ؟ جائز). إنما بمجرد ظهور الكاميرات انهالت الدموع خصيصا .. مصحوبة بفتاوى مؤكدة بأن فى القصة جريمة قتل . ومن باب الاحتياط.. يصبح واجبا القبض على نفس تلك السيدة المصرية القادمة من لندن مع جثمان سعاد حسنى.

من هؤلاء أيضا من بدأ دفاعه عن نفسه بالهجوم على الآخرين : نحن لم نقصر فى حق سعاد حسنى فى أى وقت وإنما شملناها بالرعاية التليفونية والبريدية والمالية الدائمة . لكن .. ما الحل وسعاد حسنى نفسها كانت تغير محال إقامتها وأرقام تليفوناتها .

منهم كذلك من بدأ القول: إن الدولة لم تقطع إنفاقها المالى على علاج سعاد حسنى إلا بعد دفع مبلغ ٨٥ ألف جنيه استرلينى . ومع ظهور المزيد من الكاميرات رفع البعض الآخر الرقم إلى مليون ونصف مليون جنيه استرلينى ، قبل أن تطلب سعاد حسنى من الحكومة ذات الحسب والنسب والأصول التوقف – سعاد التى تطلب التوقف – عن الصرف على علاجها فى لندن .

وحتى لا يضيع هذا الكرم الدعائى مع الحكومة هباء أمام الكاميرات .. فقد ذكر هؤلاء البعض أنهم تحركوا فورا لتكوين جمعية لأحباء سعاد حسنى – سندريلا السينما المصرية – وتخليد ذكراها . جمعية باسم «جمعية السندريلا للإستثمار العقارى» بأموال خاصة وأسهم حين ميسرة . إنما كل المطلوب من الحكومة هو توفير عشرة أفدنة أو عشرين فدانا من الأرض المناسبة مجانا لحساب أعضاء الجمعية ، الذين سيصبحون محبين لسعاد حسنى بخاتم النسر .. حتى لا تضيع الدموع على رحيل سعاد حسنى هدرا .

كلمات وأشياء تفلق الحجر .

وهكذا تحولت المأساة إلى ملهاة سوداء . والملهاة جوهرها ركوب الموجة ، أو بلغة السينما : سرقة الكاميرا . سرقتها من الجمهور العريض الملتاع ، ومن سعاد حسنى نفسها جوهر المأساة .

فقط نسى الجميع – تحت غلالات دموع الكاميرات – أن أهم ما لصق بسعاد حسنى نفسها هو أنها فى أى عمل فنى كانت «تسرق الكاميرا» . أما التعبير الدقيق الصحيح فهو أن الكاميرا هى التى كانت تسرق سعاد حسنى . ففى الكيمياء الغريبة بين الفنان والكاميرا اعتادت الكاميرا – الصماء أصلا – على الإنحياز إلى وجوه دون أخرى . وفى تاريخ السينما المصرية تحالفت كاميرا التصوير مع وجه سعاد حسنى منذ بدايتها الأولى فى فيلمها الأول سنة ١٩٥٩ . هذا التحالف استمر يخدم سعاد حسنى ثلاثين سنة متواصلة . بعدها ترددت الكاميرا بعض الشىء فتحولت رحلة سعاد حسنى الفنية من السعادة إلى الشقاء .. ومن النظر إلى الكاميرا كحليف مؤكد إلى التشكك فيها كخصم محتمل .

لقد بدأت رحلة العذاب .

❑❑❑

فى الحديث عن الشهرة والأضواء والنجوم ينجذب قلمى – غصبا – إلى أم كلثوم .. ثم إلى يـوم محدد ضمن شـريط معرفتى بها . لقد رفعـت سماعة التليفون فى بيتى لأجد على الطرف الآخر الصديق الموسيقار بليغ حمدى . وبكل مودة وتفاؤل يتصل بليغ حمدى لينقل الرسـالة : «ثومة تريدك غدا فى سـتوديو ٤٧ بالإذاعة لتحضر التسجيل الأول للأغنية – أغنية «حكم علينا الهوى» (من كلمات عبد الوهاب محمد وألحان بليغ حمدى) .

اسـتغربت تماما من الدعوة . فلا أنا حضرت من قبل أى تسـجيل لأم كلثوم .. ولا هى أصـلا مـن طبعها دعوة أى أحد – خارج نطاق الأغنية ذاتها – لحضور التسـجيل . وفى ردهـات الإذاعـة كان محفوظا عن ظهر قلـب أنه فى المرات التى تحضـر فيها أم كلثوم لتسـجيل أغنية جديدة لها .. لا يمتنع الإقتراب من الأسـتوديو فقط .. وإنما من الطابق كلـه . فـى نفس الوقت لم أكـن أتصور أن «بليغ حمدى» سـيخترع لى من خياله دعوة لا أسـاس لها . لكننى تصورت فقط أنه ربما حماس زائد من جانبه للحنه وموسـيقاه . هكذا شكرته.. واعتذرت .

بعد أيام اتصلت أم كلثوم نفسـها . لم تحك لى عن الأغنية أو التسـجيل . ولا أنا أيضا فتحت سيرة مكالمة بليغ حمدى . فقط هى اقترحت على أن أمر عليها فى «الفيللا» صباح غد بسـيارتى . فى الغد ذهبت . وقبل أن أغادر السـيارة كانت أم كلثوم قد دخلت اليها لتجلس على المقعد المجاور وتقول لى : هيا بنا إلى الإذاعة .. ثم بدأت ، كعادتها ، تتمتم بصوت خفيض بعض آيات القرآن الكريم .

فى الأستوديو جرت مفارقتان . فبينما الفرقة تضبط آلاتها فى قلب الأستوديو .. إذا بأم كلثوم تدخل مع بليغ حمدى ومعى فى مداعبات ومجاملات رقيقة وكريمة . أما حينما تغادر هى إلى داخل الأسـتوديو ليبدأ التسـجيل فقد كان بليغ حمدى يفاجئنى هامسا بتساؤلات قلقـة : مالهـا أم كلثوم ؟ انها لاتبدو فى كامل لياقتها . اللهم اجعله خير . بعدها أوقفت التسـجيل لبعض الوقت وعادت إلينا حتى يأتوا لها بكوب من اليانسـون . لا قلق . كلها دوخة بسيطة عابرة . الدردشة والمداعبات من جديد ثم محاولة استكمال التسجيل وإرهاق أم كلثوم من جديد .. وقرار منها : لينصرف الموسيقيون الآن .. وربما نكمل غدا .

فى سيارتى عائدا معها إلى منزلها بالزمالك راودتنى أفكار متقطعة أساسها التفاعل مع حالة الإرهاق غير المسبوقة التى شهدتها لتوى فى صحة أم كلثوم . هى لم تكن ظاهريا تشكو من شىء . لم تكن تشكو أيضا من حالة نفسية تعانى منها مؤخرا بمناسبة مشروعها الخيرى الذى تفكر فيه .. واختارتنى ضمن مجلس إدارته لأجد نفسى الأصغر سنا . هى أيضا كان نبض عروقها عزة نفس وكبرياء .

بمجرد أن استدرت بسيارتى يسارا إلى كوبرى «أبو العلا» كنت قد استجمعت شجاعتى وقلت لها أنصاف أفكار متقطعة : يا ثومة .. هل الغناء المنتظم للجمهور نص مكتوب وملزم فى علاقتك مع الناس و .. و .. و .. تاه الكلام .

ردت أم كلثوم بقفزة مفاجئة : أعتزل الغناء ؟ سهل جدا . سهل ومريح . إننى حتى أستطيع أن أجد عذرا مناسبا لذلك . مع هذا فإننى أعرف فى داخلى أننى لو قررت الاعتزال فهذا معناه نهايتى . لا أستطيع . لا أستطيع . إننى أحسب عمرى بعدد مرات وقوفى على المسرح .

بعدها حشر الصمت نفسه بيننا . السيارات والشوارع وإشارتان أو ثلاثة وصدق فظيع فى كلماتها . إن كلماتها الأخيرة عند بيتها كانت : هيه ؟ هاتيجى التسجيل بكره ؟

إننى لم أكن أعلم بعد أنه تسجيلها الغنائى الأخير . لهذا قلت : أكيد . لكن .. هل أنت بخير ؟ نعم . كانت بخير .

أو – لم تكن ؟

❑❑❑

كل الفنون ترتبط بالنسب . كلها أولاد خالة . الرسم والكتابة والغناء والموسيقى والتمثيل والإخراج والتصوير فيها من المشترك بأكثر مما فيها من المختلف . كل المبدعين أيضا عجينة متقاربة . قد تختلف نسب المكونات وعناصر التفاعل . لكن الكيمياء فى النهاية هى نفسها : التفاعل بين المبدع وجمهوره . الانضباط والحزم والخيال والثقافة والمعرفة والخبرة والتطور كلها أساسيات . إنما فى نهاية المطاف : الفنان يعطى إبداعا .. متوقعا أن يأخذ حبا . قد نجد من يبدع لإرضاء المؤرخين بعد جيل أو جيلين . لكن الإبداع الغالب هو المتجه إلى هؤلاء الناس .. فى هذا المجتمع .. ولهذه اللحظة .

ومع ذلك فإن لحظة الكاتب تختلف عن لحظة نجم السينما ، مثلا قد يظل كاتب فى عطائه سنة وعشرا قبل أن يتعرف مجرد عشر أشخاص على صورته .. أو حتى يتعرفوا إليه أصلا . إنما السينما تحديدا يحكمها قانون آخر .

فى السينما هناك «النجاح الفورى» . بفيلم واحد ناجح يصبح الممثل مشهورا عند آلاف من الناس . وحينما يصبح الممثل نجما تتسع شهرته بامتداد الملايين .. وربما تؤلف من أجله القصص وتتحدد ميزانيات الأفلام .

فى السينما قانون السوق . فإذا ابتعدنا عن لغة الاقتصاد يصبح التعبير هو قانون شباك التذاكر ، أو ثقة الموزعين وإقبال المولين توقعا لمجىء الأرباح من شباك التذاكر أملا فى أن الطلب سيفوق العرض .. والإيرادات ستجىء بأضعاف المصروفات .

لكن هناك أيضا وجها آخر لنفس العملة . فمقابل «النجاح الفورى» هناك «الفشل الفورى» . فيلم واحد يكسب فيصبح النجم فى سابع سماء . فيلم آخر لنفس النجم يخسر فيصبح النجم فى سابع أرض . قانون السوق . لا مشاعر هنا . لا حب ولا كراهية . ولا رحمة أيضا .

فى نجومية سعاد حسنى السينمائية اشتغل قانون السوق لصالحها طوال معظم مشوارها . فى نجومية أم كلثوم كانت السوق موجودة لكن مع بعض التحسينات . شهرة أم كلثوم ونجوميتها جاءت ببطء ، ومن قرية إلى قرية ، وبغير ميكروفون ولا حتى إذاعة فى بداية البداية . هذا يحافظ على توازن الفنان نفسيا لأطول فترة ممكنة ويجعله أيضا أكثر اطمئنانا إلى الزمن وأكثر ثقة فى التعامل معه .

❑❑❑

مع رحيل أم كلثوم توقف الزمن .. مؤقتا .

ويوم الجنازة اتصل بى الموسيقار الصديق محمد عبد الوهاب لكى يرتب معى الذهاب سويا لحضور الجنازة المنطلقة من مسجد عمر مكرم بميدان التحرير بالقاهرة . لكننى ذكرته بأن الزحام يصيبنى بضيق فى التنفس ، وبالتالى فلن أذهب إلى الجنازة مكتفيا بالتسمر فى البيت أمام جهاز التليفزيون لأتابع مسيرة الجنازة على الهواء .

وقال لى عبد الوهاب : معك حق . أنا أيضا سأبقى فى المنزل وأحزن مع التليفزيون .

قلت له معترضا : لا .. لا .. القياس هنا مختلف . أنت محمد عبد الوهاب ولابد من وجودك بشخصك فى الجنازة ليراك الناس جميعا مشاركا لهم فى أحزانهم . هذا وإلا ستنشر جميع صحف العالم العربى غدا فى صفحاتها الأولى خبرا متكررا بأن محمد عبد الوهاب – شريك أم كلثوم الفنى ورفيق مشوارها – لم يحضر الجنازة . هل أنت مستعد لمثل هذه الصدمة من الجمهور فيك ؟

فكر عبد الوهاب لبعض لحظات قبل أن يغير رأيه من جديد متمتما : معك حق . أنا ذاهب إذن الى «مسجد» عمر مكرم .

الجنازة تزاحم فيها مئات الآلاف من الناس الحزانى . لكن مع متابعتى لها فى شاشة التليفزيون لم ألحظ عبد الوهاب فى المقدمة . لم ألحظ حتى أن الجنازة بدأت فى التحرك .

نصف ساعة على الأكثر ودق جرس التليفون بجوارى من جديد . إنه محمد عبد الوهاب .

فى هذه المرة كلماته مرتعشة فعلا : شفت شورتك ؟ أنا سمعت كلامك وذهبت . وابتداء من فندق هيلتون ، يعنى من قبل ميدان التحرير بمسافة ، وجدت بحارا متلاطمة من البشر مما جعل السائق مضطرا إلى المسير بالسيارة ببطء .. منتهى البطء . يا دوب .. مترا بمتر . وبدأ بعض الجمهور الحزين يتعرف إلىّ داخل السيارة . ومن نوافذ السيارة دخل الناس بأعناقهم ليحاصرونى بأصواتهم الباكية الخانقة لى ولهم مرددين .. يا أستاذ عبد الوهاب.. أم كلثوم راحت .. فريد راح .. وانت البركة فيك..

قلت له : والله شعور طيب ..

قاطعتنى كلماته المرتعشة : أنا عارف أنه طيب . لكن يجوز معناه أيضا أنهم يعتبرون أننى اصبحت من العهد البائد . شكلها كده . لا يا عم . أنا لست محتاجا لإثبات حزنى على أم كلثوم لأى أحد . الله وحده يعلم بفجيعتى وفجيعة الغناء العربى كله من خسارتها . إنما .. الروح حلوة .. أنا كدت أموت اختناقا من الزحام . زحام الناس والمشاعر .

فكرت بسرعة ثم قلت له : على العموم فاتت لحظة المشاركة فى الجنازة . بالليل سيخف زحام الناس كثيرا والنظام فى سرادق العزاء سيكون أكثر انضباطا . من هنا أقترح عليك الذهاب فى المساء إلى سرادق العزاء .

سكت عبد الوهاب للحظات بدت كالدهر ثم قال لى بلهجة اشتراطية : طيب أنا موافق إنما بشرط .. رجلى على رجلك .. ونروح سوا فى سيارتك أنت حتى نكون معا وننصرف معا .

فى السرادق ليلا دخل محمد عبد الوهاب متوكئا على ذراعى ، فقد كانت متاعب عينيه وقتها لا تسمح له بالرؤية لأبعد من أمتار قليلة . وفى صدر السرادق جلسنا . وبعد لحظات نهضت من مقعدى فسألنى عبد الوهاب مخضوضا : رايح فين ؟

قلت له : أبدا . إنما وجهاء الدولة الموجودون لازم نفسهم يجلسوا جنبك لزوم الكاميرات .. وبعدين أنا لمحت أحمد فؤاد حسن من مسافة وأريد أن أسأله عما جرى ظهرا فى الجنازة . كلها خمس دقائق وأعود إليك أو قريبا منك .

فى أذن أحمد فؤاد حسن قائد الفرقة الماسية شرحت له الموقف همسا وقلت له : إننى سوف أتسلل منصرفا بعد قليل فى الاستراحة بين مقرئين .

اعترض أحمد فؤاد حسن بدوره قائلا لى : الأستاذ جاء معك بسيارتك وتتركه هنا بمفرده ؟ كيف سيعود إلى بيته ؟

قلت له : حينما يقف عبد الوهاب فى انصرافه باحثا عن سيارة توصله سيجد بدل السيارة مائة . إنما المهم عندى هو أن يستمر موجودا فى السرادق لأطول فترة ممكنة.

وكما عرفت فيما بعد فإن هذا هو بالضبط ما حدث . كلما انتهى مقرىء من التلاوة وبدأ جزء من الجمهور فى الانصراف ليحل محله جزء أخر كان الجميع يلمحون عبد الوهاب فورا من بعيد . وبدل الانصراف يسارا كانوا يتجهون يمينا ليقولوا له تنويعات من نفس المعنى .. يا أستاذ عبد الوهاب البقية فى حياتك .. أم كلثوم راحت .. وفريد راح .. وأنت البركة فيك .

فى الواحدة صباحا اتصل بى عبد الوهاب . وبرغم الإرهاق البادى فى صوته ومبادرته بالشكوى من قيامى بالتخلى عنه .. إلا أنه كان مستريحا نفسيا تماما لما جرى . مستريحا ومكلوما أيضا . وفى تلك اللحظات تأكد لى من جديد عمق الفجيعة الشخصية التى يعانيها عبد الوهاب من رحيل أم كلثوم . بالطبع هناك العمر والعشرة والتاريخ والمشاركة والذكريات . وهناك أيضا جانب آخر برحيل أم كاثوم فقد عبد الوهاب أكبر ناشر صوتى لموسيقاه باتساع العالم العربى .

لكن ، بمعنى من المعانى ، استمرت فى العقل الباطن لعبد الوهاب فكرة الخوف من أنه ربما يكون قد أصبح من «العهد البائد» . الخوف من الزمن .

والزمن فى حياة الفنان هو مجده , وهو أيضا شبح العجز عن إعطاء المزيد من العطاء.

❑❑❑

فى سنوات سعاد حسنى كان الزمن بخيلا وسخيا . حليفا وعدوا . دافعا لها وسيفا عليها . هى من أسرة رقيقة الحال ضمت ١٧ أخا وأختا . الأب خطاط موهوب لكنه مزواج . البنت الصغيرة اللهلوبة تمثل على نفسها وتعيش فى تقاطع من خلافات دائمة بين أبوين مطلقين . فى السياق أصبحت شقيقة كبرى لها من الأب – هى نجاة – مطربة فى الإذاعة .. وصغيرة . سعاد أيضا شاركت أحيانا فى برامج " بابا شارو " للأطفال بالإذاعة المصرية .

إنما ألتحول الكبير الأول فى حياة الصبية سعاد حسنى جاء من مكتشفها : عبد الرحمن الخميسى .

لم أعاصر عبد االرحمن الخميسى . وبالدقة تقابلنا ثلاث أو أربع مرات فى عصر ما قبل التاريخ . أقصد تاريخ بدايتى المتواضعة فى الصحافة . ومن موقع هو أبعد ما يمكن عن نموذج عبد الرحمن الخميسى . لكن فيما قرأته عنه وأعرفه كوقائع عامة .. فإنه كان شخصية استثنائية . لم يكن كاتبا فقط .. وإنما كاتب وشاعر وقصاص ومترجم وموسيقى ووفدى وناصرى ومسرحى وناشر ومنشور ودائن ومدين وعاشق ومعشوق ومستور ومفلس وعاطل وصاحب فرقة مسرحية وجائع ثم هو سبب اختفاء الكباب من بر مصر بين ليلة وأخرى . لم يبق فيما قرأته عنه سوى أن يكون عبد الرحمن الخميسى : ضابط احتياط . وبجسمه فارع الطول ، كان من الممكن أن تصدق عليه .

عبد الرحمن الخميسى اذن هو المكتشف الأول لسعاد حسنى . عنده قصة طقّت فى دماغه اسمها «حسن ونعيمة» ليست ابتكارا ولا اختراعا ولا فتحا مبينا . إنما أصبحت فكرة رحبت الإذاعة المصرية بها أولا كمسلسل يومى لثلاثين حلقة أصبحت بطلته السيدة «كريمة» مختار فى دور «نعيمة» باعتبار أن الإذاعة تعتمد بالدرجة الأولى على الموهبة الصوتية . ومؤخرا فقط سمعت حوارا مذاعا مع السيدة كريمة مختار قالت فيه ، بكل محبة

ورقة ومودة ، إنها مع تطور الحلقات لاحظت أن الخميسى يجىء معه إلى الأستوديو بفتاة شابة متقوقعة ومنكمشة فى أحد أركان الأستوديو بغير أن تنطق بكلمة . مع الوقت عرفت كريمة مختار أن الخميسى يفكر فى تحويل المسلسل الإذاعى فيما بعد إلى فيلم سينمائى ، وأن تكون هذه الفتاة المنكمشة – اسمها سعاد حسنى – هى «نعيمة» على الشاشة البيضاء ، وأنه يجىء بها فى كل تسجيل بتنبيه واحد عليها : اجلسى هنا صامتة تماما لكى تتعلمى من كريمة مختار فن استخدام الصوت فى التعبير عن مشاعرك الداخلية .

الخطوة التالية أصبحت مشـــروع فيلم ة، ليكون من إخراج هنرى بركات المعروف عنه أنه مخرج أفلام فاتن حمامه والرومانسية المرتبطة فى نفس الوقت بشباك التذاكر .

أما المفاجأة الحقيقية فهى أن يصبح محمد عبد الوهاب (ضمن شركته مع عبد الحليم) هو منتج الفيلم . وبتلك الصفة يصبح محمد عبد الوهاب هو قانون السوق .. شخصيا . قانون اللعب فى المضمون والمغامرة فقط بأسماء لها رصيد مسبق عند الجمهور وفى شباك التذاكر . فى هذه المرة أصبح لمحمد عبد الوهاب الفنان الصوت الأعلى من عبد الوهاب المنتج . إنه هنا لايغامر بفلوسه فقط على وجه جديد مجهول لفتاة اسمها سعاد حسنى ، وإنما شريكها فى البطولة هو أيضا وجه جديد لمطرب ناشىء اسمه محرم فؤاد .

لكن الفتاة الشابة الطموحة سعاد حسنى حينما طلب محمد عبد الوهاب مجيئها ليرى بنفســه أولا صلاحيتها للشاشـــة البيضاء فوجىء بها تقول له بكل جرأة : والنبى يا أستاذ عبد الوهاب .. أنا فى دور «نعيمة» نفسى كمان .. أغنى .

سألها عبد الوهاب بكل وقار واهتمام : والله ؟ لك فى الغناء ؟ وكمان جدا جدا ؟ طيب سمعينى حاجة أنت حافظاها وتغنيها .

وبجرأة أكثر .. إذا بتلك الفتاة تغنى لعبد الوهاب أغنيته الشـــهيرة «كل ده كان ليه» . تنحنـــح عبـــد الوهاب بكل صبر وأدب قائلا لها : صوتك فيه حاجة (جيدة ؟ ســيئة ؟ لم يوضح) إنما يا شـــاطرة .. خبطتين فى الرأس توجع . كفاية دلوقت خبطة واحدة . كفاية نغامر بك أولا .. كممثلة . أما الغناء فله مشوار ثانى لك مع نفسك وصوتك .

غامـــر عبد الوهـــاب إذن كفنان ضد قانـــون عبد الوهاب كمنتج ، فـــى زمن تفتح على المواهب . والسينما المصرية فى ذروة عطائها الإنتاجى وكبار الفنانين يتحمسون للاكتشاف

والاستكشاف . الزمن أيضا صبور مع الموهبة . فحتى اللحظة التى قامت فيها سعاد حسنى ببطولة فيلمها الأول هذا فى سن السابعة عشرة لم تكن أكثر من موهبة خام قابلة للانطفاء أو اللمعان . لم تكن حتى تعرف القراءة أو الكتابة .

رعاية عبد الرحمن الخميسى لسعاد حسنى جعلته يصبح مع الزمن واحدا من ثلاثة كشافين كبار لمواهب تلك الفتاة وصاحب فضل أساسى فيما ستصبح عليه عند الملايين من الجمهور .

كان إصرار سعاد حسنى على التعلم هو الأساس وسباقها مع الزمن أتاح لها بطولة أفلام بعد أفلام .. بعضها عادى المستوى وبعضها أصبح علامات مميزة بحجم فيلم «القاهرة ٣٠» عن قصة لنجيب محفوظ وفيلم «الزوجة الثانية» عن قصة لأحمد رشدى صالح .. وكلاهما من إخراج صلاح أبو سيف .

ومع ذلك كان الزمن الذى هو حليف سعاد حسنى فى تلك المرحلة .. هو الذى يدخرها لدور عمرها فى بطولة فيلم «خللى بالك من زوزو» عن قصة لصلاح جاهين وألحان لكمال الطويل وسيد مكاوى .

□□□

فى نيويورك تقابلنا .. أنتونى كوين النجم السينمائى الأمريكى الكبير (ومن أصل مكسيكى) .. وأنا . كانت المناسبة هى دعوة من صديق مشترك للبقاء فى نيويورك أسبوعين أو ثلاثة ومتابعة التصوير الخارجى لفيلم جديد من بطولة أنتونى كوين . وبتلك الصفة ، وباستثناء مواعيد التصويرْ ، فقد أصبحنا نحن الثلاثة نقضى معظم الوقت معا .

فى إحدى المرات قال لى أنتونى كوين مداعبا : أنت تذكرنى بشبابى .

وأردت أن أرد إليه المجاملة فقلت له : وأنت تذكرنى بزوربا اليونانى .

انكمشت فجأة ابتسامة أنتونى كوين وقال لى : أه .. أنت تنكأ جرحى . فهذا الفيلم تحديدا هو الأقرب إلى نفسى وقلبى من بين كل ما قمت بتمثيله . وفى نفس الوقت هو أيضا معركتى الدائمة مع جمهورى .

كانت المفارقة كبيرة وموحية ولم ينجل غموضها إلا مع شرح أنتونى كوين . قال : تتذكر طبعا أن «زوربا اليونانى» هى قصة من الأدب اليونانى بطلها هذا باسم زوربا . إنسان

بسيط وتلقائى وعفوى ومحب للحياة والناس والطبيعة ومتواضع فى طلباته لكنه طموح فى أحلامه وبداخله قدر كبير من براءة الأطفال .. الخ . المشكلة هى أن هذه هى تركيبتى النفسية فعلا .. وما أطمح لأن أكونه فعلا . لكن ترجمة هذا إلى دور على الشاشة تحتاج إلى مؤلف وسيناريست ومخرج ومنتج يكونون جميعا بقدر الحماس نفسه .

ثم سكت أنتونى كوين قليلا قبل أن يضيف : حينما قرأت تلك القصة اعتبرت أننى وجدت كنزا . وبعد مشوار طويل نجحت فى تحويل القصة إلى فيلم على الشاشة . وبقدرة قادر اتسع جمهورى السينمائى حول العالم ليصبح بالملايين . وأينما ذهبت بدأ الناس ينادوننى باسم زوربا . حتى الموسيقى الشهيرة فى الفيلم وأقوم بالرقص على نغماتها .. أصبح الناس يطلبونها منى حيثما ذهبت . بالطبع كان هذا يسعدنى تماما ويوقظ إنسانيتى لأن هذا هو ما كافحت طوال النصف الأول من عمرى لكى أكونه . لكن مع الزمن اكتشفت بأن علىَّ أن أكافح فى النصف الثانى من عمرى لكى أقنع جمهورى بأننى قادر على أداء شخصيات أخرى على الشاشة .. قد لا تكون بنفس الثراء الإنسانى كما فى حالة زوربا . لكنها قد لا تقل فنا أيضا .

□□□

شىء من هذا ربما يكون قد حدث أيضا فى حياة سعاد حسنى السينمائية . لكن .. بينما فى حالة زوربا اليونانى كانت الشخصية مطروحة من السابق فى عمل أدبى متكامل وممتع فى حد ذاته ويعرفه كل قراء الأدب اليونانى .. إلا أن فيلم «خللى بالك من زوزو» كان شيئا مختلفا .. من نبت ظروفه ومجتمعه وزمنه .. وبغير أصل أدبى .

فى البلد نكسة كبرى منذ يونيو ١٩٦٧ ، وجراحة شاملة للحياة المصرية وإصرار متناه على أن تكون حرب يونيو فصلا فى قصة ولكنها ليست خاتمة القصة ، وجيش جديد يجرى بناؤه تحت القصف والقصف المضاد ، ومليون شاب يشكلون هذا الجيش معظمهم من المتعلمين وخريجى الجامعات أتاحهم استثمار سابق فى مجانية التعليم ، وحرب استنزاف وزعيم يرحل ورئيس جديد يتولى السلطة وسؤال يفرض نفسه على الجميع : لماذا يتأخر انطلاق الجيش لتحرير الأرض ؟

وسط هذا كله ، بل ومع هذا كله ، لابد أن تمضى الحياة ولا تتوقف . السينما لم تتوقف . لكن ماذا تقول السينما لملايين المعبأين المشتاقين ليوم الثأر ؟ وفى حالة صلاح

جاهين تحديدا حينما يتحمس للكتابة للسينما ، ماذا يقول ؟ إن قال جادا راح فى داهية . وإن قال هلسا خان المليون جندى فى الجبهة . إذن .. ما العمل ؟

جاء العمل فى هذا الفيلم «خللى بالك من زوزو» واحدا من الإجابات على جمهور سنة ١٩٧٢ . لا سياسة بالمرة وإنما قصة حب .. قد تبدو ساذجة لأول وهلة ومجرد تسلية . إنما البطلة فتاة بسيطة شقية لهلوبة متعلمة من بين ملايين الفتيات فى مصر الجديدة . فتاة لا تتبرأ من ماضيها ولكنها تثق بنفسها ومستقبلها وتستطيع القول فى الضوء الساطع : إنها تحب الحياة وتدرك خياراتها ومستعدة لتحمل النتائج .

وحينما اختار صلاح جاهين سعاد حسنى لتكون فتاته هذه فى الفيلم السينمائى فقد أصبح هو المكتشف الثانى لها بعد عبد الرحمن الخميسى . صلاح أيضا يشترك مع الخميسى فى كونه صاحب «سبع صنايع» .. شاعر ورسام وممثل وصحفى وزجال ومؤلف وسيناريست وقبل هذا وبعده .. عجينة خالصة من الموهبة والرقة والرومانسية والأحلام الكبيرة .

من بين الأحلام أن يكون الفيلم غنائيا , وسعاد حسنى بطلته ترقص وتغنى . حتى هنا : لا مشكلة . لسعاد صوت غنائى مقبول وهى غنت فعلا فى أفلام سابقة لكن من غير أن تترك بصمة صوتية غنائية ، إلى أن كيمياء الفن والحظ عند إشارة مرور ذات يوم فى قلب القاهرة .

فى الإشارة لوحت سعاد حسنى من سيارتها إلى الموسيقار كمال الطويل فى سيارته : نفسى أغنى .. ونفسى موت أغنى من ألحانك بالذات .

وبأسلوب كمال الطويل المجامل رد عليها بقوله : إن شاء الله يا سوسو .. أنا كمان أحب إنك تغنى .

بعدها ذهب كل فى طريقه .. فإشارة المرور انفتحت . والإشارة خضراء .

فى المساء تليفون من صلاح جاهين ، وعشرته الفنية مع كمال الطويل عميقة وناجحة وسابقة : أنا عندى سعاد فى البيت .. أنت صحيح وعدتها إنك تلحن لها ؟

أسقط فى يد كمال الطويل وجرجر قدميه إلى بيت صلاح جاهين ليجد سعاد حسنى وآخرين والحكاية فيلم جديد والشغل فيه بمرحلته الأخيرة وسيد مكاوى انتهى من تلحين

أغنية باسم الفيلم . والآن .. هذه هى الأغنية الرئيسية يا عم كمال حسب القصة . أغنية «يا واد يا تقيل» . البطلة أمامك والمنتج وراءك ولا مفر . عايز بيانو ؟ أنا جاهز به لليوم ده .. تفضل .

تمعن كمال الطويل فى الكلمات . بسيطة وشعبية وتملأ النافوخ خبط لزق . إنما القصة إيه ؟ والبطلة من ؟ خلاص يا كمال ، حكينا لك القصة عشر مرات ، وشخصية البطلة عشرين مرة . البيانو جاهز ، ولا مفر .

بمجرد أن جلس كمال الطويل إلى البيانو فى بيت صلاح جاهين تبخر نصف حماسه : يا صلاح .. هذا ليس بيانو .. هذا بوتاجاز متنكر فى شكل بيانو .

سواء هى طبيعة كمال الطويل ، أو حظ سعاد ، أو شقاوة صلاح جاهين ، أو كيمياء اللحظة ، فإن ما جرى فى نصف الساعة التالى شىء لا يصدق . لقد ترك كمال الطويل البيانو واتجه إلى باب الحجرة ووقف ينقر الإيقاع على خشب الباب ملحنا الكلمات كوبليه بعد كوبليه .. وصلاح جاهين واقف إلى جواره بجهاز تسجيل . فى تلك الليلة لم يعرف أحد – بعد – أن لحنا يمكن أن يولد بهذه الطريقة ويتدفق به كمال الطويل بهذه السلاسة كما لو أنه مولود باللحن فى داخله . لم يدرك أحد أيضا أن ما يجرى سيصبح سريعا قنبلة الموسم .

إنما الأكثر أهمية هو أن الجميع لم يتصور أن كمال الطويل يمكن أن يعود إلى التلحين بمثل تلك المصادفة . فى تلك الفترة كان قد هجر التلحين من أصله .. وانسحب قبل سنوات فى منتصف لحن وضعه لصديق عمره عبد الحليم حافظ وأغنية «بلاش عتاب».. فيما اعتبره عبد الحليم مفاجأة عمره .. فمشواره الفنى مع كمال الطويل سابق وناجح ومبهر .

وفى عشرات المرات ، بعضها كنت شاهدا عليها فى بيت عبد الحليم حافظ أو فى بيتى أو وسيطا عند كمال الطويل من طرف عبد الحليم .. لم يتوقف أملى فى أن يسترد كمال حماسه ويعود إلى التلحين مرة أخرى .. ولعبد الحليم . الصداقة موجودة والود مستمر وتهانى كمال بأغانى عبد الحليم الجديدة من ألحان بليغ حمدى متكررة . إنما .. أين أنت يا كمال من الموسيقى ؟ موجود .. لكن بعيد عن الموسيقى .

الآن .. حتى بعد أن وضع كمال الطويل لحن أغنية «يا واد يا تقيل» فى بيت صلاح جاهين ، نسى الموضوع تماما وسافر إلى الإسكندرية . وبروايته هو فيما بعد .. فإنه لم يكن متأكدا بدرجة كافية من أن صوت سعاد حسنى سيكون قادرا على التعبير عن الروح التى وضعها فى هذا اللحن الخفيف السريع .

بالإسكندرية قالت له زوجته ذات صباح : ألن تسافر إلى ستوديو مصر بالقاهرة اليوم ؟ هل نسيت موعد تسجيل أغنية سعاد ؟ ومنذ متى تترك ألحانك هكذا كما لو أنها بلا صاحب ؟ على الأقل تتأكد من حسن التنفيذ .

❑❑❑

فى موقع التنفيذ والتسجيل باستوديو مصر بالقاهرة وجد كمال الطويل كل شىء تمام .. باستثناء لحنه وصوت سعاد حسنى . الفرقة الموسيقية مدهشة وعازفوها مقتدرون وقائدهم أوركسترالى بديع .. واللحن – ظاهرا على الأقل – منضبط . إنما النتيجة صينى بدل العربى .. أو أوركسترالى بدل الشعبى .. أو فصاحة بدل الشقاوة . طيب . متشكرين يا أساتذة وتعالى هنا يا عمر يا خورشيد (عمر خورشيد عازف الجيتار) .. يا محمود (محمود عفت عازف الناى البديع) ومعلهش يا صلاح (جاهين) سأشرح لك فيما بعد بينى وبينك .

كمال منه للموسيقيين وبالتبعية للمغنية والمؤلف : يا أساتذة .. يا إخواننا .. معايا لو سمحتم . فلنبدأ من أول وجديد . هذه سعاد حسنى وليست سعاد محمد . القصة بطلتها بنت أمها عالة فى شارع محمد على . بتقول لولد بتحبه : يا واد يا تقيل يا مشيبنى .. ده أنا بالى طويل وانت عاجبنى .. بس يا إبنى .. بلاش تتعبنى .. علشان عمرك ما ها تغلبنى .. معايا يا أساتذة ؟ الغناء هنا يكون كده .. الآلات المهمة كده .. السرعة كده .. الإيقاعات كده .. يا أساتذة .. نجرب مع بعض ؟ كمان بروفة تانى .. وتالت ,

بعد ساعات من الحفظ والتجربة والتسجيل وإعادة التسجيل وساعة بعد ساعة رضى كمال الطويل عن لحنه واستلقى على كرسيه بالغ الإرهاق ، استعدادا للعودة بسيارته إلى الإسكندرية . لكن سيد مكاوى دخل عليه راجيا : يا أبو كمال .. إشرافك على شغلك نتيجته الشىء المدهش الذى سمعته . طيب أنا أعمل إيه ؟ من يشرف لى على شغلى ؟ أنا فى طولك وعرضك . لحنى أمانة تحت إشرافك .

فى الساعات المبكرة من الصباح التالى عاد كمال الطويل إلى الإسكندرية . بعد أسابيع خرج الفيلم إلى الأسواق «مسويا الهوايل» فى شباك التذاكر .. بأغانيه على ألسنة الملايين .

من تلك اللحظة تحولت سعاد حسنى عند جمهورها ، بل وفى قرارة نفسها ، إلى «زوزو» . حتى فى التسجيل الموجود بصوتها على تليفونها المحمول كانت تقول : «أهلا وسهلا .. هنا زوزو .. زوزو النوزو كونوزو» . وفى مداعبات المصريين اليومية وغزلهم أحيانا أصبح مألوفا استخدام تعبيرات من نوع : يا واد يا تقيل .. ما تقولش أمين شرطة اسم الله .. ولا دبلوماسى ؟ هى عبرت وأعطت فأجادت . والنتيجة المدهشة من الناس : شلال من الحب .

❑❑❑

بعدها مثلت سعاد حسنى أفلاما عديدة تالية ، بعضها حتى تنويعات على تركيبة «خللى بالك من زوزو» .. تغنى وترقص وتمثل .. كما فى فيلم «أميرة حبى أنا» الذى قام كمال الطويل بتلحين كل أغانيه . كلها أيضا دخلت فى قاموس الملايين حينما يريدون التحدث عن «الدنيا ربيع والجو بديع .. قفل لى على كل المواضيع» .

إنما اللمسة السحرية فى علاقة سعاد حسنى مع نفسها ، وعلاقتها مع جمهورها ، استمرت مرجعيتها هى «زوزو» . بالضبط كما عشق أنتونى كوين دوره فى زوربا .. وصارع بعده ليقنع جمهوره بأنه .. إلى جوار زوربا .. يمكن أن يعبر عن شخصيات أخرى .

مشكلة سعاد حسنى أكثر تعقيدا . هى امرأة أصبحت نجمة شباك . هى أيضا سندريللا . هى ثالثا تمثل وتغنى وترقص . وبالتالى يصبح عليها أن تحتفظ باستمرار .. ليس بجمالها فقط .. وإنما بكامل لياقتها البدنية والجسمانية . لقانون السوق هنا – أو شباك التذاكر – شرطان صارمان مع هذه الشريحة من النجوم : قوة الإرادة .. بالإضافة إلى تحويل الزمن إلى عنصر محايد . وبينما الإرادة ممكنة .. إلا أن حيادية الزمن لن تتجاوز التسامح لبعض الوقت .. إنما ليس طوال الوقت .

مع الزمن استجد خصم آخر : المرض . فمع إصابة سعاد حسنى بشرخ فى العمود الفقرى ، وعلاج خاطىء فى البداية ، أصبحت آلامها لاتطاق . بعدها أصبحت نفس الأدوية التى تسكن آلامها هى التى تسبب لها زيادة الوزن ، وهو ما يؤدى بدوره إلى

ابتعادها عن حالة اللياقة البدنية التى تريدها لنفسها . وكلما نظرت سعاد حسنى فى مرآتها بحثا عن «زوزو» تجد أن «زوزو» تصبح أبعد .. وأبعد .. وأبعد . الحلم يهرب . وفى فراغه يجىء شىء آخر : الاكتئاب .

❑❑❑

ذات يوم اتصل بى محمد عبد الوهاب . إنما الصوت غير الصوت . والتفاؤل انقلب إلى تشاؤم . وخفة الظل تحولت إلى مجرد أداء للواجب بالسؤال الروتينى عنى اعتمادا من عبد الوهاب على مداعبته المتكررة : أنت ابنى الشقى .

كتمت عن عبد الوهاب انطباعاتى وتظاهرت بعكسها محاولا العودة به إلى طبيعته فى المئات من مكالماته السابقة . أبدا . اكتئاب .

كنت أستطيع التخمين بمناسبة وسبب هذا الاكتئاب . إنه رحيل يوسف وهبى الذى هو من جيل وربما من عمر عبد الوهاب . الآن هو بالغ الحزن ولم يعد يجد للحياة معنى .

كانت الكلمات الأخيرة شذوذا كاملا فى قاموس عبد الوهاب . هو اعتاد محايلة الحياة.. وملاطفة الزمن.. حتى يلاطفاه . من الأطباء يعرف الكثيرين . الانضباط .. هو نفسه نموذج له . النوم المبكر واليقظة المبكرة والمشى داخل شقته لمدد محددة والأكل المسلوق ولا سجائر أو منغصات ؟ كله موجود . البعد عن الهم والغم والإنفلونزا والبرد والهواء الملوث.. كله تمام . إنما المشاعر والأحاسيس ؟ وفراق الأحباب ؟ والزمن .. الزمن .. الزمن .

قلت لعبد الوهاب : بصراحة أنت عملت كثيرا للخروج من أحزانك على أم كلثوم . الآن .. لماذا لاتجرب تغيير نمط حياتك ؟

بعد أن قلت تلك الكلمات تمنيت أن أسحبها من جديد . هذا عبد الوهاب شديد الخبرة بالناس والحياة وأنفق من وقته الكثير سابقا لكى ينصحنى ويشد من أزرى فى مواجهة منعى من الكتابة فى جريدتى وأزمات عابرة أخرى بعيدة تماما عن محيط اهتمامه ومصالحه . كيف أعكس الآية وأستبيح لنفسى الآن إسداء النصح له ؟

وعبد الوهاب يسايرنى : يعنى أغير حياتى ازاى بعد هذا العمر ؟ أروح أسهر فى كباريه ؟ أبعد عن البيت ؟ أنت أيضا تمر عليك الأسابيع لاتغادر منزلك ..

قلت له : لم أقل لك غادر منزلك .. أقول فقط .. غيِّر الجو .. جدد الهواء .. تفرج على مسرحيات . افتكر مثلا إنك فى ليلة كنت زعلان فى بيت محمد التابعى ووجود زكريا أحمد ونجيب حنكش ، ألفت ولحنت لك ليلى مراد أغنية فورية باسم «عبد الوهاب لابس قبقاب» وأنك ساعتها نسيت همومك كما حكيت لى بنفسك .. وضحكت كما لم يحدث فى حياتك . الآن اغمض عينيك .. وافتكر ليلى مراد .. وبالمناسبة .. جرب تلبس قبقاب .

فى تلك الليلة ناكفنى عبد الوهاب وناكفته .. بلا جدوى . الاكتئاب هو الاكتئاب .

❑❑❑

فى عز النوم دق التليفون إلى جوارى فى السرير . يا خبر ؟ تقريبا نحن فى منتصف الليل . لقد رفعت السماعة مهيأ نفسيا إلى الشخط فى هذا المزعج المقلق للراحة فى وقت غير مناسب .

طلع إنه محمد عبد الوهاب . وبغير تمهيد قال لى بحماس بالغ : أنت نايم ؟ يا راجل افتح التليفزيون ..

لكن .. لماذا أقوم من السرير وأفتح جهاز التليفزيون فيطير من عينى النوم حتى الصباح ؟ لأن فى التليفزيون مسرحية دمها خفيف .. وبطلها باين عليه إنه كوميديان مهم... ها ها ها... والنبى تسمع... ها ها ها...

لم أضحك لأن محنتى الفورية هى أن النوم طار من عينى . قضى الأمر . إنما حب الاستطلاع جعلنى أسأله : هذا تغيير كبير منذ مكالمتنا ظهرا .. إنما لازم يكون شىء خطير هذا الذى يحدث .. ماذا جرى ؟

– أقول لك سمير غانم ده باين عليه كوميديان مهم .. والنبى تسمع .. ها ها ها ..

لأول مرة اعتدلت فى السرير ، فالمسألة جد . قلت له : سمير غانم باين عليه ؟ كأنك تقول عنه إنه فنان ناشىء . هو كوميديان مهم وله جمهور عريض من زمان .. من أول ما طلع مع الضيف أحمد وجورج سيدهم فى سكيتش «دكتور .. الحقنى» و«زمان .. زمان»..

وعبد الوهاب يستدرك : تمام .. تمام .. إنما أنت لم تفهم قصدى .. أنا قصدى أقول لك إنه فى العادة الكوميديان يستثمر شيئا غير عادى فى خلقته يحوله من ضعف إلى قوة..

يعنى فمه أوسع من اللازم كإسماعيل ياسين مثلا .. أو عيناه فيهما حول أكثر من اللازم كعبد الفتاح القصرى مثلا .. أو صوته أجش أكثر من اللازم كنجيب الريحانى مثلا .. أو حركة شفايفه مع لسانه أقل انضباطا من اللازم كحسن فايق مثلا .. أو جسمه أقصر وشنبه مقصوص بشكل لافت كشارلى شابلن مثلا . إنما سمير غانم الذى أراه الآن كله مضبوط ووجهه وسيم .. وبعد كده .. كوميديان .. ده يبقى شىء مهم ..

سألته مستغربا : هل هذا مدح أو ذم ؟

– مدح طبعا .. اسمعه والنبى بيقول ... ها ها ها ... شوف .. هنا لازم يعمل إفِّيه .. أيوه ايوه عفارم عليك ... ها ها ها والنبى تفتح التليفزيون ..

قلت له : بدل فتح التليفزيون أنا عندى فكرة . إذا كان سمير غانم قد أسعدك الليلة إلى هذا الحد واستخرج الضحكات من قلبك بكل هذه الجلجلة .. فأقل شىء تكلمه فى التليفون وتبلغه بنفسك شعورك كما تحكيه لى الآن بالضبط ..

– لكننى لا أعرفه شخصيا ..

– الآن عرفته .

– ولا أعرف تليفونه .

– سأعطيك من الذاكرة رقم تليفونه . المسألة لا تحتاج إلى أية معرفة شخصية سابقة . تحتاج فقط إلى أن تضع نفسك مكانه حينما يتلقى مكالمة من الموسيقار محمد عبد الوهاب ليقول له : أشكرك .. فقد أضحكتنى من كل قلبى ..

أخذ عبد الوهاب نمرة التليفون لكن بغير حماس ظاهر وبلا تأكيد مسبق .. ناوى يطلب سمير غانم أو لن يطلبه؟

❑❑❑

عصر اليوم التالى تلقيت مكالمة تليفونية من سمير غانم . لم يكن فى الأمر مفاجأة فهو يتحدث بين فترة وأخرى . فى هذه المرة يحكى عن أشياء وأشياء .. ثم وسط الحديث قال : على فكرة .. سأغير من جديد رقم تليفونى . أصله غير معقول تداخل الخطوط وتطفل الناس الفاضية يوصل إلى هذه الدرجة .. تخيل .. آخرتها بعد نص الليل واحد فاضى يطلبنى .. أقول له أهلا وسهلا مين حضرتك ؟ فيرد يقول لى : أنا محمد عبد الوهاب

يا أستاذ سمير .. وحياتك ركبنى العصبى ورديت عليه بما يستحقه لأنه إنسان فاضى يتسلى على خلق الله .. وقفلت السكة فى وجهه .

حاولت أن استوعب الموقف .. فتساءلت : لكن يا سمير .. كيف جزمت بأنه ليس محمد عبد الوهاب ؟ فى النهاية صوت عبد الوهاب معروف للملايين .

رد سمير غانم بغضب : هذا ما استفزنى أكثر .. واحد فاضى يتقمص حتى صوت محمد عبد الوهاب . طيب .. اعطنى عقلك .. الأستاذ الكبير الموسيقار بتاع الجندول والكرنك وأنت عمرى وأم كلثوم وجبل التوباد ويا جارة الوادى وأخى جاوز الظالمون المدى والحبيب المجهول و .. و .. و.. لما يطلبنى – جدلا يعنى – يقول لى : يا أستاذ سمير ؟ طيب إذا كانت البداية هى إنى استاذ .. تبقى النهاية إيه ؟ ناس فايقة ورايقة علاجها تغيير رقم التليفون .

قلت له : والله فكرة يا سمير .. طيب قبل ما تغير تليفونك هل أنت مرتبط غدا .. ظهرا ؟ جميل .. سأنتظرك ونذهب بسيارتك إلى أى مكان ييجى على البال .

بعدها اتصلت بعبد الوهاب استكمالا للمكالمة الناقصة من ليلة أمس . الصوت عاد إلى رنينه . التفاؤل وخفة الدم استردا مكانهما . إنما لم يفتح مطلقا أى سيرة عن مكالمته مع سمير غانم ، وبدورى لم أتطوع بالإضافة أو التعليق . بعدها سألنى : عايزين نقعد «نقر» سوا .. يعنى ندردش سوا ..

قلت له : سوف أمر عليك ظهر غد لكن بعد استيفاء ثلاثة طلبات . أولا : تكون فيه أم على . ثانيا : يكون عندك أكل ضار بالصحة . ثالثا ـ يكون الأكل لشخصين .

رد عبد الوهاب مقاطعا : الآن كل ما تقوله ضار بالصحة . ماله الأكل المسلوق أو الردة بالملعقة ؟ والبعد عن كل ما هو حراق وفيه ملح وشطة ؟ هذه خبرة عمر ودكاترة متخصصين . إنما معلهش .. خليك براحتك وفى يوم حتلاقى كلامى تمام .. بالنسبة لبكره.. من الآن اعتبر أن أم على ذات نفسها موجودة .. وكل ما هوضار بالصحة موجود.. سعاد (مديرة المنزل) عارفة نظامك وإنت منك للطباخ .

❑❑❑

فى الطابق الثانى من العمارة إياها ـ مسكن عبد الوهاب ـ سألنى سمير غانم عند الباب : ممكن أعرف ، لمجرد العلم بالشىء ليس إلا ، دى شقة مين ؟

قلت له : يا أخى شقة واحد صاحبى .

لم يطلع صاحبى . طلعت سعاد . بعدها الصالون . بعدها جاء عبد الوهاب ولحظتها مفاجأة سمير غانم . بعدها قلت لسمير غانم : دعنى أقدم لك يا أستاذ سمير فنانا ناشئا ومستقبله غير مضمون .. اسمه محمد عبد الوهاب .

الكيمياء تحركت والصدفة تحولت إلى كوميديا ومحمد عبد الوهاب هذا ، المكتئب بشدة قبل ٢٤ ساعة ، تحول إلى طفل من جديد بضحكاته وتفاعله مع سمير غانم .

فى السياق سألت عبد الوهاب : أين أم على ؟ وفى السياق يتعمد عبد الوهاب تأخيرها، بعكس انضباطه الصارم مع مواعيده للغداء . أخيرا ، وعلى مائدة الطعام ، جاء الطباخ بأم على . هى حلوى مطبوخة مشكلة أساسا من العيش واللبن والمكسرات . وبرغم أننى عموما لا أحب الحلوى .. إلا أن طاجن «أم على» بالذات يصبح بالنسبة لى الأحلى مذاقا وطعما فى بيت عبد الوهاب .

بينما جلستنا مستمرة على المائدة طرحت سؤالا بسيطا : لماذا يمارس الفنانون أحلامهم دائما .. فرادى ؟ لماذا لايخصصون جزءا من اهتمامهم ووقتهم للانشغال بالمستقبل ؟ لماذا يتعلق كل فنان بماضيه ، وهذا حقه ، بينما لايعطى فى نفس الوقت مساحة للتفكير فى استباق الزمن ؟

النقاش بدأ ، والأفكار توالدت ، والوقت مضى .

□□□

فى نيويورك – وهذا يعيدنى إلى أنتونى كوين – كنت متوقفا خلال نقاشات متقطعة ومستمرة عند سؤال جوهرى : هذا أنت أمامى .. أنتونى كوين .. ناجح ومطلوب ومكسر الدنيا بمناسبة فيلم وزربا اليونانى . بعد هذا العمر وهذه النجومية وهذا التكيف مع «قانون السوق» .. هل أنت مضطر للمشاركة بفلوسك الخاصة منتجا لفيلم كهذا الذى أتابعه هنا ؟

رد أنتونى كوين بما يلى : السينما هى صناعة الأحلام وتسويقها . جمهور بالملايين ومنتجون بالعشرات . من هنا ولدت هوليود . ولدت صناعة السينما الأمريكية التى صدرت بضاعتها إلى كل انحاء العالم . هوليود اخترعت عقود الإحتكار ونظام النجوم . حسب هذا

النظام تتعاقد معى مثلا إحدى شـركات الإنتاج أو الأسـتوديوهات أو أصحاب رأس المال . أنا فى تلك اللحظة ما أزال نكرة ومجهولا ولو قلت لى اعمل المستحيل سأعمل .. لأن الحلم فى داخلى . وإذا لم تعجبنى الشروط فهناك آلاف غيرى جاهزون ..

.. فـى البداية أوقع أوراقـا وكل دافعى هو حلمى بأن أصبح نجما ويصفق لى الناس . وبعـد أن رضيت بالقليل وتعبت صفق لى الناس وتفاعل معى الملايين وأدركت قيمتى .. ثم ماذا ؟

.. فى الجانب الأول من القصة هناك شركة تفكر لك .. هى التى تحدد لك من تصاحب وماذا تقول وأين تتواجد ونوع الملابس التى ترتديها وأى حفلات تقبل الدعوة إليها . هناك جيش من المتخصصين وخبراء العلاقات العامة يقررون لك مسبقا ماذا تقول وأين تقيم وفى أى مكان تسـتريح ومع من تتواجد . يعنى باختصار ، نظام النجوم هذا هو النوع العصرى من نظام الرق والعبودية . يتفرج عشرات الملايين حول العالم على نجمهم المحبوب هذا ، ويتوحـدون معـه ، ويهيأ لهم أنه معبر عنهم وملك خـاص لهم . لكن فى حقيقة الأمر هو لايعبر عن نفسـه ، وإنما عمَّا يقرره له الأسـتوديو . وهو أيضا ملك لأصغر موظف مختص فى إدارة هذا الأستوديو ..

.. عند أول فرصة للهرب من نظام الرق والعبودية هذا .. كل قادر فينا على الهرب .. يهرب . بل وفى بعض الأحيان يدفع الفلوس والتعويضات لكى يهرب ويعفيه الأسـتوديو من عقد الإحتكار ليسـترد حريته . أنت الآن تسـتغرب من أننى أنتج بفلوسـى فيلما من بطولتى . استغراب معقول . لكننى أشترى حريتى واستقلاليتى وحقى فى أن أختار لنفسى مـا أريد أن أقدمه إلى جمهورى أملا فى أن يصدقنى لأن اللعبة فى هذه الحالة تصبح أكثر إنصافا وعدالة . فى فيلم سابق كان ممكنا أن أدعوك إلى العشاء ـ كما نتعشى الآن ـ لكن هذا يحدث فقط لمجرد أن الأسـتوديو هو الذى قرر ذلك ، وهو الذى اختارك وكلفنى بدعوتك وهو الذى يضيف فاتورة العشاء إلى تكاليف إنتاج الفيلم بغير أن يسألنى الأستوديو مسبقا : هل مثل هذا الشخص يريحك أو يزعجك ؟ أنا عبد المأمور والشركة التى تحتكرنى هى التى تقرر لى من يكون ضيفى ، وليس أمامى سـوى الإذعان وإلا فهناك عقوبات .. لو تكررت وتصاعدت تؤدى إلى خراب بيوت وقضاء على مسـتقبل واحتكام إلى قانون الغابة . الأقوى يأكل الأضعف . فإذا فكر الأضعف فى التمرد يجرى سحقه ليصبح عبرة لغيره .

ثم انتهى أنتونى كوين إلى الخلاصة : السحق هنا لايعنى القتل المادى . يكفى القتل المعنوى . يكفى ضرب المتمرد فى مقتل من خلال توصيله إلى حالة من انعدام الثقة بالنفس وبأنه لم يعد له مستقبل . عنده ماض فقط . فليعش فى هذا الماضى لأن هذا هو كل ما أصبح لديه . ماض .. بلا مستقبل .

□□□

سعاد حسنى ، ولأسباب وظروف مختلفة ، ربما تكون قد عانت من شىء من هذا . شىء من الإلحاح على أنها أصبحت ماضيا بلا مستقبل . إنما الأسوأ هو أنها تصرفت على هذا الأساس . لقد تلبست نوعا خاصا جدا من النجومية .. والدور تلبسها . هى «زوزو» لأنها فى حينها كانت فى أكبر حالات لياقتها النفسية والبدنية . جمهورها تفاعل معها أيضا لأنه محتاج إلى «زوزو» . بعد قليل تحولت المسألة إلى أن كليهما أصبح سجين الآخر . هى سجينة لجمهورها – جمهور زوزو – والجمهور نفسه لم يستوعب أن «زوزو» نفسها فكرة وحلم . قد تجسده سعاد حسنى فى فترة . لكن غيرها يجسده فى فترة تالية .

لم يكن أى منهما واقعيا مع الآخر . لا الجمهور خفض توقعاته من سعاد حسنى ، ولا هى أيضا عدلت من توقعاتها من الجمهور . هناك حقيقة تعلوهما معا عنوانها : الزمن . وربما يحسب لسعاد حسنى أنها جربت الخروج إلى جمهورها بشىء مختلف عن «زوزو» ففوجئت بالفشل . نريد «زوزو» والمزيد منها . حاولت أيضا أن تنسحب سعيا إلى أن تعيد ضبط أوضاعها فى مواجهة الخصمين الطارئين : الزمن والمرض .. فواجهها خصم جديد . فى الحرب على جبهتين آلام كافية ، ويجوز التكيف مؤقتا مع أى منهما . إنما الخصم الجديد أصبح هو : جماعة آكلى اللحوم البشرية .

هذا جديد .

□□□

من بين ٨٢ فيلما سينمائيا – يعنى مشوار معتبر – بدأ التردد فى العلاقة الثلاثية مابين سعاد حسنى والكاميرا والجمهور اعتبارا من فيلم «المتوحشة» المقتبس أصلا عن مسرحية لجان اينوى . والفيلم من إنتاج سعاد نفسها (١٩٨٧) .. واضطرت إلى تصوير نهايته مرتين مختلفتين . أما فيلمها الأخير فهو " الراعى والنساء " – ١٩٩١ – والذى استنفدت فيه الكاميرا نصف طاقتها فى مداراة المتاعب الصحية لسعاد حسنى .

بعدها رحلات العلاج المتقطعة . فى البداية إلى باريس ، وبعدها إلى لندن . فى حالات من هذا النوع فإن القاعدة الأولى حسب «قانون السوق» هى أن يبتعد النجم عن الأضواء بالكامل .. خصوصا كاميرات المتطفلين . فى هوليود مثلا ، وحتى من غير مرض ، تلتزم نجمة الإغراء مثلا فى عقدها مع الشركة المنتجة بعدم التقاط أى صور لها تهز من شكلها فى خيال الجمهور .. كأن يتم تصويرها من غير ماكياج .. مثلا .

سعاد حسنى لم تكن نجمة إغراء . هى جميلة .. لكنها ليست صارخة الجمال . لها قبول يحرك القلوب .. ولكن لا يحرك الغرائز . مع ذلك فالمرض هو المرض . وحينما يتلازم المرض مع زيادة الوزن تصبح الصور أول الممنوعات . ليلى مراد مثلا مع آخر فيلم سينمائى لها لم تعد تسمح مطلقا بالتقاط أى صور فوتوغرافية لها .

نتيجة رحلة العلاج هى التى تقرر الخيارات المتاحة أمام نجمة بهذه الشعبية كسعاد حسنى . هناك خيار التغيير الآمن .. كأن تتحول من سندريللا إلى أم مثلا . هناك خيار الاعتزال النهائى ، وهذا يعنى حياة جديدة مختلفة تماما وبعيدة بالكامل عن أية أضواء . هناك خيار التمسك بنجومية السندريللا مع تعديلات طفيفة .. وهذا هو الأصعب على الإطلاق .. لأن الزمن هنا له سلطة الاعتراض . سعاد لبست «زوزو» . و«زوزو» لبست سعاد . لكن للزمن تعليقا على الأحداث .

فى جميع الحالات هى التى تقرر وتختار على ضوء نتائج العلاج . ولكى يحدث ذلك سافرت سعاد حسنى للعلاج .. والعزلة . فى حالتها .. العزلة جزء من الدواء . لكن العزلة شىء .. والوحدة شىء آخر مختلف .

وفى عزلتها وغربتها ثم وحدتها .. استجدت على سعاد .. بعد جبهتى الزمن والمرض.. نصف جبهة أخرى . إنهم المتطفلون من المحيط القريب . فمع الأضواء يجىء الهاموش . بعده الذباب .

وفى أيام أم كلثوم كان يوجد «هاموش» . إنما .. ولأنها أم كلثوم .. فقد كان علاجها باترا ، وأقامت حول حياتها الخاصة سور الصين العظيم .. فاحترم الغريب والقريب خيارها هذا . مع ذلك .. وفى لحظات «فضفضة» إنسانية .. كانت أم كلثوم تحكى لى عن منغصات لها تتجاوز خيالى . منغصات لحرق الدم .

فى أيام عبد الحليم حافظ كان «الهاموش» قد استقر أرضا وتحول إلى صراصير . وبرغم كل الرائج عن شعبية عبد الحليم ونفوذه .. إلا أننى عاصرت معه فى مرحلته الأخيرة حالات من حرق الدم التى كانت تدفعه إليها صراصير المدينة . أمام الكاميرات كان عبد الحليم يكابر متظاهرا بأنه لايهتم . أما فى داخل غرفته المغلقة التى يسحبنى إليها من أجل «الفضفضة» الآمنة .. فقد كان يجهش بالبكاء . صعب على نفس عبد الحليم بعد كل ذلك المشوار والكفاح والشعبية أن يتعرض لذلك النوع من الضغط والابتزاز والقرف والتلوث من صراصير المدينة .

مع أفلام سعاد حسنى الأخيرة كانت الصراصير قد تحولت إلى فئران . ومع مشوارها الأخير للعلاج أصبحت الفئران أفيالا . والأفيال من نوع خاص مخلّق يجعلها أقرب إلى أكلة لحوم البشر .

أتوقف هنا عند نموذجين .

فى الواقعة الأولى وجدت سعاد حسنى نفسها ، وهى فى الغربة والعزلة والوحدة ، وسط ادعاء بكلمات تستنطقها بما لم تقله . ادعاء بأنها ارتبطت مع عبد الحليم حافظ فى حياته ، ولمدة خمس سنوات كاملة ، بعلاقة زواج بعقد عرفى . تلك كذبة مجلجلة لم تنطق بها سعاد . هناك ارتباط عاطفى جرى بين عبد الحليم حافظ وسعاد ذات فترة . هناك غرام . هناك توافق عاطفى كان يمكن أن ينتهى إلى زواج . لكنه لأسباب لاتقلل من أى منهما .. زواج لم يحدث .. وأصبح كل منهما يسير فى طريق .. مكتفيا باعتزازه بالطرف الآخر .. من بعيد لبعيد .

واستنطاق سعاد حسنى كذبا ، وفى حالتها تلك بالغربة ، بمثل ما جرى .. كان يعنى استدراجا لها إلى كمين بالغ الخبث .. ويسىء إليها وإلى عبد الحليم حافظ .. معا . المغزى ببساطة ، وبأثر رجعى ، هو أنه كانت لعبد الحليم حافظ وسعاد حسنى حياة سرية أخرى يخفيانها عن الناس . وطرح مثل تلك الأكذوبة ، مع رحيل طرفها الأول قبل سنوات .. وعزلة طرفها الثانى اضطراريا .. كان أقصى درجات الحقد على كليهما معا .. ودليل مفحم على الغل الدفين منهما معا .. ولأسباب لها سياق آخر ليس هذا مكانه . وأسوأ ما فى الإشاعة السوداء المدسوسة والمنشورة عمدا .. هو أن سعاد لم تكن تستطيع الخروج أمام الكاميرات لكى ترد .. فذلك كان بالضبط هو الكمين المنصوب لها وسافرت إلى الغربة حتى لا تضطر إليه .

أما الواقعة الثانية فقد جرى نشرها قبل شهور قليلة من رحيل سعاد حسنى . الآن نحن أمام كذبة سوداء أخرى .. وموجعة ومتوحشة بدرجة أكبر . الأكذوبة هى أن سعاد حسنى تعيش فى لندن هائمة على وجهها غير واعية بتصرفاتها ، تلتهم فضلات الطعام والمشروبات بشراهة .. وتتصرف بطريقة مقززة حتى لن يتعاطفون معها وأيضا : تتسول . أما عنوان الأكذوبة ، وبراءة الأطفال ودموع التماسيح ، فهو : انقذوا سعاد حسنى .

لكن العنوان مضلل . والمضمون متوحش . المضمون هو : دعوة للقبض على سعاد حسنى وإدخالها قسرا إلى أقرب مستشفى للمجانين .

يا إلهى . تلك دعوة لايقولها المرء .. حتى عن عدو . هو أيضا كمين آخر مختلف .. استدراجا لسعاد حسنى أمام الكاميرات .. فى أسوأ لحظاتها الصحية وقدرتها النفسية على مواجهة الكاميرات . فى الحالتين هى مدانة مقدما أمام جمهورها . مدانة إذا صمتت . ومدانة إذا تكلمت .

كان هذا التوحش شيئا جديدا فى هذه المدينة . جديدا ومهينا وغير إنسانى بالمرة .. وفى لحظة دقيقة إنسانيا يواجه فيها النجم أصعب معاركه .. وعلى جبهتين . بل إنه حتى بعد رحيل سعاد حسنى المأساوى فى لندن .. فجع الناس بسلالة أكثر انحطاطا من أكلة لحوم البشر هؤلاء – وكلهم خيط واحد وإن اختلفت الدوافع والمصالح – بانتحال أحدهم شخصية المحقق الصحفى لكى ينشر أن أزمة سعاد حسنى سببها هو أنها كانت تعانى من.. من .. من : الشبق الجنسى .

❑❑❑

مع خروج عشرات الآلاف من الشبان والشابات فى وداع سعاد حسنى بالقاهرة .. كان شلال الحب يحيط بها من جديد .. وإن تكن هى الآن قد أصبحت ذكرى . فى شلال الحب هذا كانت الرسالة واضحة بغير فذلكة ولا فلسفة . الرسالة هى : إن الفن ممتع .. ومبهج .. ومضىء .. ومشع .. وهو فى حياتنا لكى نعتز به ونرعى مواهبه . الفن الجميل – ريشة وقلما ونغمة وصوتا وصورة – إبداع منير فى محيطنا . وبما هو قليل من جمال الفن فى حياتنا نستطيع التصدى لما هو كثير من قبح .

لقد كانت الدموع فى عيون الجمهور صامتة .. وناطقة . هى دموع عرفان بسعادة أعطتها لهم سعاد حسنى وكل من صنعوا مشوارها . وهى كذلك دموع حسرة على أن سعاد حسنى كانت تستطيع إعطاء المزيد ..

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . وهى أيضا كانت تتمنى ذلك .

obeikandl.com

● نشر هذا المقال فى العدد ٣١ من مجلة «وجهات نظر» الصادر بالقاهرة فى أغسطس ٢٠٠١ .

واختاره الأستاذ محمود سعد رئيس تحرير مجلة «الكواكب» ليعيد نشره بالمجلة على ثلاث حلقات فى ٢٠٠٢/٥/٢١ و٢٠٠٢/٥/٢٨ و٢٠٠٢/٦/٤ .

obeikandl.com

الرحيل ..
فى منتصف جملة موسيقية

يندهش المرء كثيرا – فالكاتب لا يساوى شيئا إذا لم يندهش – كيف يطاوعه القلم فى كتابة مقال منتظم ليتم نشره فى موعد محدد سلفا .. ثم يعصيه القلم تماما فى الكتابة عن حدث مفاجىء يهز النفس هزا ؟ كيف أجلس إلى مكتبى مرتين وثلاث مرات أسبوعيا لأكتب مقالات تنشر فى لندن والرياض والخليج .. ثم لا أستطيع الجلوس لأكتب مقالا ينشر فى القاهرة ؟ كيف يقدر لى أن أندمج بسهولة فى قضايا كبيرة وبعيدة ؟ قضايا كالزلزال السياسى فى موسكو أو حرب الإبادة فى البوسنة ؟ أو الفوضى التى أصبحت نظاما دوليا .. والأمم التى لم تعد متحدة .. ثم لا أستطيع أن أندمج مع قضية اسمها بليغ حمدى ؟

يندهش المرء كثيرا وكثيرا . لكن القلم لابد أن يطاوعه فى هذه المرة . ليس لأكتب عن صديق كبير اقتطع معه جزءا من عمرى .. ولكن لكى أكتب عن الفكرة التى كانت : بليغ حمدى . إن المشكلة التى تظل محيرة دائما ليست : ماذا أكتب .. ولكن : من أين أبدأ .

أستطيع أن أبدأ من تلك اللحظة التى سقطت فيها الصحيفة من يدى فى ذلك الصباح من سبتمبر . لحظة قراءة الخبر المفجع : وفاة بليغ حمدى فى باريس . فى الواقع إن بليغ ذهب إلى باريس فى هذه المرة وهو ينوى من الأصل أن تكون زيارته الأخيرة .

وقبيل سفره من القاهرة اتصل بى تليفونيا ، وفى رقته المعهودة ، ليسألنى : هل أريد شيئا من باريس ؟ إنه مسافر خلال يومين أو ثلاثة . لا يا بليغ . أشكرك .. ولكن لماذا السفر ؟ وما وجه الإستعجال ؟

● مجلة «أكتوبر» : ١٩٩٣/١٠/٢٤ .

لا .. ليس هناك استعجال . فقط هو لديه تلك الشقة الصغيرة فى باريس منذ أيام الغربة الاضطرارية . الآن يريد أن يبيعها لأنه لن يغادر القاهرة بعد ذلك أبدا . ثم : لكى يراجع أيضا حالته الصحية مع الأطباء المعالجين له هناك .

واتفقت مع بليغ على أن يمر علىّ فى منزلى فى السابعة من مساء اليوم التالى . ثم قلت لـه : يـا ريت يا بليغ تجيب معاك الملف الطبى عن حالتك الصحية . إنه وعدنى بذلك . لكن اللافت أنه لم يسـألنى بالمرة عن السـبب .. وما الذى أفهمه أنا طبيا أصلا حتى أهتم بمجموعة تقارير طبية من هنا وهناك .

فـى الموعد المحدد جاء بليـغ . وخلال لحظات عـرّفته على صديق عزيز آخر سـبقه بالحضور ، هو الدكتور علاء الزيات ، أحد أبرز وأكبر أسـاتذة الأمراض الباطنية والقلب فى مصر . لم يكن شـيئا مألوفا بالمرة أن يترك طبيب بحجم علاء الزيات عيادته ومرضاه ومستشـفاه فى ضاحية «المعـادى» جنوب القاهرة لكى يأتينى علـى هذا النحو المتعجل . لكننى كنت قد شـرحت له فكرتى بالضبط ، فتجاوب معها فى التو واللحظة .. كرما منه وتقديرا لمكانة «صديق شخصى» لى ويهمنى أمره وأرجو أن أطمئن منه على حالته .

لحظـات أخـرى والكلام جاب كلام . نعم يا بليغ .. هذا هـو بالضبط علاء الزيات ، ووالـده هـو الأديب الكبير الراحل أحمد حسـن الزيات . وبليغ يتحـدث فورا عن مجلة «الرسالة» التى كان يصدرها الزيات ، ومجلداتها التى كان والده يحتفظ بها . هذا أيضا هو بليغ حمدى يا دكتور علاء الذى تحتفظ فى سيارتك بشرائط لأحدث ألحانه .

وفى اللحظة التى بدأ فيها الدكتور علاء يقرأ صفحات الملف الطبى الذى جاء به بليغ . كانت تساؤلاته تسبق الأوراق أمامه . نعم بليغ حدث له هذا وهذا .. نعم لقد عانى من هذا وهذا .. نعم يحدث له انتفاخ كبير فى المعدة بمجرد أن يأكل شـيئا . نعم ، توقف تماما عن التدخين .. إلخ .. إلخ .

بعدها انتحى الدكتور علاء الزيات ببليغ فى جانب آخر من البيت ليطلب منه الاستلقاء متمددا حتى يبدأ فحصه . إن الكبد هى المشكلة . والمشكلة جادة تماما لكنها قابلة للسيطرة بشروط . وبليغ متجاوب تماما مع كل الشروط . فقط هو سيخطف رجله إلى باريس فى هده المرة ليكتب توكيلا ببيع شـقته الصغيرة هناك ويعـود على الفور . إنها أيضا فرصة ليأتى بالأدوية المحددة التى كتبها له الدكتور علاء الزيات . لكنه سيعود سريعا لأنه لم يعد يريد أن يغادر مصر بعد ذلك .

فى الساعة التالية انضم إلى جلستنا المزيد من الأصدقاء .. من بينهم الصحفى القدير غنيم عبده ، والمذيع اللامع محيى محمود . ومع اتساع أطراف الحديث تفتحت شهية بليغ حمدى للحكايات والذكريات . وعلى غير العادة كانت كلماته تنساب حبلى بالكثير من التساؤلات .. وشىء من المرارة .. مركزا الحديث نحوى بين لحظة وأخرى : فاكر يا محمود أم كلثوم كانت تتعامل معانا إزاى ؟ فاكر لما كان فلان وفلان وفلان يطلبون منا – أنت أحيانا وأنا أحيانا – التوسط عند أم كلثوم ؟ فاكر اللى حصل فى أغنية «حكم علينا الهوى» ؟ فاكر لما تصالحنا عندك فى البيت .. أنا وعبد الحليم ؟ فاكر أغنية «موعود» ؟ و«العيون السود» ؟ .. إلخ .. إلخ .

❑❑❑

فى تلك اللحظات لم يكن بالى مع بليغ بالمرة . لم نكن قد التقينا منذ شهور . ولم يكن مفاجئا لى شىء أعرفه من التدهور فى حالته الصحية . لكن المفاجىء لى تماما هو أن أراه على هذه الحال . الروح موجودة . الذهن المتوقد كما هو . التدفق طبيعى . لكن شيئا ما أصبح مفقودا . إننى لم أكن أريد لوجهى أن يفضح انفعالاتى الداخلية . وفى نفس الوقت لم أكن قادرا تماما على مسايرة بليغ فى كل هذا الشريط المتدفق من الذكريات . وبليغ مستمر . ومع استمراره تتوالى تساؤلاته : هل قرأت ما كتبه فلان ؟ هل شاهدت ما رواه علان ؟ إنهم يسرقوننا ونحن أحياء .. إنهم يلفقون لأنفسهم ما لم يكن لهم .. حتى ذكرياتنا يسرقونها منا . أين كان هذا .. وهذا .. وهذا ؟

كان وجود الأصدقاء المشاركين فى الجلسة عنصر امتصاص لتساؤلات بليغ يعفينى من الإجابة . لكن المشكلة هى أنه بين الحكاية والحكاية يتجه بليغ بتساؤلاته نحوى من جديد . والتساؤل المتكرر هو : لماذا لا تكتب ؟ تكتب عن كل شىء وكل شخص . لقد كانت أسرارنا جميعا عندك ، وأنت كنت قريبا منها وشريكا فيها ودائما نفضى بها إليك . اكتب عن أم كلثوم . عن عبد الحليم . عن كمال الطويل . عن محمد الموجى . عن.. وعن.. وعن..

لقد أدهشنى كثيرا هذا الإلحاح من بليغ . إنها المرة الأولى التى يرجونى فيها على هذا النحو . رجاء فيه القليل من الطلب وشىء من التألم والكثير من الاستغاثة وفائض من المرارة . إنها المرارة من هذا القدر الجديد الشائع من التبجح على الحقيقة . ماذا جرى للناس ؟ للحق والخير والجمال والأمانة والاختشاء والحياء ؟ ماذا جرى للرقة ؟ للوفاء ؟ للإنتماء ؟ للحقيقة ؟ للصدق ؟

إن بليغ لا يشكو بالضبط ، ففى الشكوى انحناء . إنه فقط يتساءل ويتساءل . والذكريات يزاحم بعضها البعض .

لقد أعطى بليغ موسيقاه وألحانه لكثيرين فى مصر والعالم العربى . فى الواقع سوف يكون من الأسهل إحصاء الأصوات الغنائية التى لم يلحن لها بليغ ، عن تعداد الأصوات التى لحن لها . لم تكن فقط أحلى ألحانه مع أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وشادية ووردة ونجاة ومحمد رشدى . لقد كان يبحث دائما عن الأصوات الموهوبة الجديدة .. من عفاف راضى إلى شيرين وجدى .. ومن ميادة الحناوى فى سوريا إلى سميرة سعيد فى المغرب ولطيفة فى تونس . وكان يفرح كطفل كلما وضع أذنه على صوت موهوب جديد .

فى الواقع هو الذى كان يسعى إلى الصوت الموهوب الجديد بأكثر من العكس . لقد جعل عفاف راضى ، مثلا ، على لسان مصر كلها من أول أغنية . وحينما كان المصريون يغنون مع عفاف راضى «ردوا السلام» كان بليغ هو الذى يتولى عنها مهمة كاسح الألغام داخل الساحة الغنائية . لقد رأيت محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ مرات عديدة وهما مترددان تماما أمام حماس بليغ . لكن النجاح فى النهاية يصبح له منطقه الخاص وقوة دفعه الذاتية . فلأن عبد الوهاب وعبد الحليم شريكان معا فى ملكية شركة «صوت الفن» المحتكرة لألحان بليغ حمدى وقتها ، يصبح نجاح اللحن الجديد من بليغ عنصر ترطيب للمصالح المتقاطعة .

وبليغ لم يكن شيئا إلا إذا تحمس . إنه يتحمس لصوت . لفكرة . لنغمة . لجملة موسيقية . حياة بليغ ذاتها هى مجموعة من الجمل الموسيقية . فيها المتعة أحيانا .. والشوق أحيانا .. والألم أحيانا .. وحبه لمصر دائما .

فى أعقاب كارثة يونيو ١٩٦٧ مثلا كانت الصدمة الكبرى . لم تكن كارثة يونيو مجرد هزيمة . كانت زلزالا نفسيا لنا جميعا . لقد وقعت مصر .. وأعد لها كثيرون برقيات العزاء .. بل وطريقة الدفن . وفجأة خرج بليغ حمدى ، بموسيقاه وصوت شادية وكلمات محمد حمزة ، بأغنية تعبىء مشاعر المصريين وتشحذ همتهم جميعا . وفى كل الأغانى التى لحنها بليغ كانت الفكرة تبدأ من داخله أولا .. خصوصا كلما تعلق الأمر بشحنة حب يصبها فى قلب مصر ووعيها .

هكذا أصبحت أغنية «يا حبيبتى يا مصر» على لسان الملايين فى لمح البصر . وبلغ من إلحاح الناس على طلب الأغنية من الإذاعة .. أن الكاتب الكبير الراحل فكرى أباظه قال مداعبا فى حديث إذاعى وقتها إنه اصبح يسمع تلك الأغنية بالذات ألف مرة فى اليوم .. ليس فقط فى برامج «ما يطلبه المستمعون» .. ولكن فى الشارع والنادى والمقهى والتاكسى .. فى الصباح والمساء ومنتصف الليل . هل تفعل أغنية واحدة بالناس كل هذا ؟

نعم . من بليغ حمدى .. كل هذا . وإذا تعلق الأمر بمصر .. أكثر من كل هذا .

❑❑❑

مع شهر أكتوبر سنة ١٩٧٣ تعمقت الذكريات من جديد . إنه شهر رمضان ، ذروة المنافسة بين محطات الإذاعة المصرية . وأصبحت محطة إذاعة الشرق الأوسط فى المقدمة مسبقا بمجرد تعاقدها مع عبد الحليم حافظ على بطولة المسلسل الدرامى الذى سيذاع يوميا عقب الإفطار فى حلقات متتابعة . مسلسل عن قصة من تأليفى بعنوان «أرجوك .. لا تفهمنى بسرعة» .. وتولى إخراجها للإذاعة المخرج الإذاعى الراحل الكبير محمد علوان . وسواء قبل أو أثناء الاندماج فى هذا العمل الفنى .. أصبح من الطبيعى أن نكون جميعا مشدودين إلى بعضنا البعض أكثر وأكثر . هناك عبد الحليم حافظ وشركاؤه فى البطولة عادل إمام ونجلاء فتحى وعماد حمدى والآخرون . هناك أيضا أغانى المسلسل ويقوم بتلحينها محمد الموجى وبليغ حمدى ومنير مراد . هناك أيضا ضغط الوقت .. لأن كل محطات الإذاعة فى العالم العربى تعاقدت مسبقا على إذاعة الحلقات مع القاهرة فى نفس الوقت.. إن لم يكن لسبب فيكفى أنها المرة الأولى التى يتحمس فيها عبد الحليم حافظ لأداء البطولة الدرامية والغنائية فى مسلسل إذاعى .

وفى اليوم العاشر من رمضان – السادس من أكتوبر – جاء الخبر القنبلة . لقد بدأت حرب أكتوبر . حرب تأخرت ؟ تأجلت ؟ طال انتظارها ؟ كله وارد . لكنها جاءت أخيرا لتصبح هى بذاتها ما أسميته «اليوم السابع» لحرب يونيو . فى هذه المرة لا تتحرك مصر فقط .. ولكنها مصر وسوريا معا . إنها بالضبط نفس صيغة النجاح بامتداد قرون طويلة .. كلما عادت الروح إلى العالم العربى .

وأصبحنا نعمل بروحين . إن إذاعة القاهرة أوقفت فورا كل برامجها العادية لكى تتفرغ لمتابعة تطورات الحرب . لكننا مضطرون للاستمرار فى تسجيل حلقات «أرجوك ..

لا تفهمنى بسرعة» لكى تذاع فى المحطات الأخرى المتعاقد معها بامتداد العالم العربى. فى نفس الوقت نحن مندمجون بالكامل ، نفسيا وعقليا ، فى متابعة مجريات الحرب . إن الإظلام كامل فى العاصمة ليلا . لكن الناس يرى بعضها البعض وكأن نورا داخليا ينطلق من داخلهم لكى يضىء بينهم كل المسافات . الكل يريد أن يسهم بأى شىء .. بكل شىء.. ليصبح فى مستوى هذا الأخ أو الشقيق أو الجار الذى يقاتل فى سيناء بمثل هذا الأداء المدهش الذى تدرب عليه وحفظه ومارسه فعلا طوال حرب الاستنزاف سابقا .

واختفى من بيننا بليغ حمدى . ساعة وساعتين ثم : بليغ فى الإذاعة يسجل أغنية جديدة لكى تؤديها المجموعة . إنها أغنية «باسم الله» . يوم ويومين : بليغ يختفى من جديد . ثم : أنا فى ستوديو ٤٦ جاى لك حالا ومعايا مفاجأة . ويجىء بليغ لنسمع معه هذا الشريط . إنها أغنية «على الربابة» التى لحنها وسجلها لتوه بصوت وردة . هكذا تكرر اختفاء وظهور بليغ طوال أيام حرب أكتوبر . وتكررت ألحانه التى كانت تخرج من قلبه إلى قلوب الملايين جميعا فى لحظات .

إن أحدا لم يطلب من بليغ أى شىء .. ولا كلفه أحد بأى شىء . يكفيه أن محبوبته هذه – مصر – قد سمعته يشدو لها فى لحظة انتكاسها ، ويؤمن بقوتها فى لحظة ضعفها ، وينفخ فى روحها فى لحظة تمزقها . إنها الآن كما تمنى لها بالضبط : قوية وعصرية وشامخة ومتوحدة مع كل أبنائها الذين جعلوا الرمال جزءا من طعامهم اليومى لست سنوات من أجل هذه اللحظة .

لكن بليغ لم يعد يكتفى بالنداء «يا حبيبتى يا مصر» . بليغ يتغنى بنداء «الله أكبر» لمجرد أنه كان نداء المقاتلين المصريين – مسلمين ومسيحيين – وهم يعبرون قناة السويس إلى سيناء بسلاحهم . وبليغ يغنى لمحبوبته التى لم تهتز ثقتها بنفسها أبدا . يغنى لها على الربابة منتشيا : تعيشى يا مصر . بليغ ينفعل . يفكر . ويكتب . ويستدعى شاعرا غنائيا لينظم له ما كتبه . بليغ يتصل بمكتب مدير الإذاعة محمد محمود شعبان ، ويجرى إلى أحمد فؤاد حسن قائد الفرقة الماسية . وفى ظلام الليل وإجراءات الطوارىء العسكرية يجرى بسيارته إلى الإذاعة . إنه ، حتى ، لا ينتظر المصعد . إنه يأخذ السلالم قفزا إلى ستوديو ٤٦ . هناك يجد فى انتظاره كل أفراد الفرقة الموسيقية جاهزين بآلاتهم . وقبل آلاتهم هم جاهزون بمشاعرهم . نسجل يا رجالة ؟ تمام يا زكريا ؟

أحيانا نكون نحن فى الأستوديو المجاور مستمرين فى تسجيل حلقات «أرجوك .. لا تفهمنى بسرعة».. لكن كثيرا ما يأتينا بليغ .. أو نذهب نحن إلى ستوديو ٤٦ واثقين مقدما من أننا سنجد بليغ هناك .. ولو جالسا بجوار مهندس الصوت زكريا عامر .. لمراجعة شريط به آخر ما يسجله بليغ عن مصر .. ولمصر . فى النهاية ، ومع انصراف بليغ معنا ، يلاحقنا على السلالم موظف من إدارة العقود بالإذاعة : لحظة يا أستاذ بليغ .. أرجوك توقع لى على هذه الأوراق لنصرف لك الأجر المستحق عن آخر أغنية لحنتها ..

فى الأغانى الوطنية كان المعتاد هو أن الأجر رمزى . لكنه بالنسبة لإدارة العقود اسمه أجر .. ولابد من تسديد خانته على الورق . وبليغ ، بصوت خفيض وخجل شديد ، يرد على موظف العقود : أى أجر يا أخى ؟ هذه الألحان بلا أجر . سجل فى أوراقك أنها هدية منى . هذا أقل واجب ، وسأقوم بالمزيد . أنا اللى متشكر لك ، وللإذاعة .

□□□

وأصبح طبيعيا أن يكون لعبد الحليم حافظ نصيب فى هذا «المزيد» . فى الواقع أن عبد الحليم ، الذى كان قد يئس تماما من إقناع كمال الطويل بالعودة إلى التلحين له ، فوجىء تماما بأن كمال هو نفسه الذى يقول له أمامى إنه الآن .. فى هذه اللحظة من حرب أكتوبر.. يحس برغبة عارمة فى أن يجلس إلى البيانو لكى يلحن و : «لكن أرجوك يا حليم.. اتركنى لنفسى قليلا حتى أعثر على الكلمات التى أجد نفسى فيها» . لحظتها طرنا جميعا من الفرحة لأن القرار فى هذه المرة خارج مباشرة من قلب كمال الطويل .

وذات ليلة ، مازلنا فى الحرب وشهر رمضان ويتبقى ساعتان أو ثلاث على موعد السحور ، دق جرس التليفون بجانبى فى البيت : «أنا حليم .. أنا عرفت أن بليغ عندك.. قاعدين شوية ؟ أنا فى الطريق» .

بعد دقائق اتضحت المشكلة .

بليغ يقول لعبد الحليم : على فكرة .. أنا لم أقل لمحمود أى شىء حتى يكون انطباعه تلقائيا .. أليس هذا اتفاقنا ؟

– خير يا حليم ..

– خير طبعا . الحكاية يا سيدى أن صاحبك ده (وكأن عبد الحليم لم يكن هو صاحب بليغ من قبلى بسنوات طويلة طويلة) دماغه مزرجن . أنا عايز أقدم أغنية عن (أنور) السادات بمناسبة الحرب . لكن ده .. رأسه وألف سيف ..

– رد بليغ بكلمات ملؤها الحرارة والصدق : يا حليم أنا تحت أمرك .. قل لى ها نغنى لمصر .. للجيش .. للشارع .. للناس .. تحت أمرك . لكن نغنى لحاكم مهما علا شأنه ؟ أبدا ..

الآن اتضحت المشكلة . وبليغ شديد الصدق فى مشاعره . فى هذه اللحظة ليست هناك على الإطلاق أية مشاعر داخل بليغ ضد أى حاكم .. السادات أو غيره . لكن المشكلة الكبرى هى أن نكسة يونيو ١٩٦٧ إذا كانت قد علمتنا أى شىء ، ففى المقدمة أن الهزيمة اسمها مصر ، والنصر اسمه مصر . وهذه الحرب – حرب أكتوبر – هى حربنا جميعا . ليست فقط حرب المقاتل فى سيناء . لكنها أيضا حرب زوجته التى تحملت غيابه ، وأخته التى استمرت تفخر به فى لحظة انكساره ، وجيرانه الذين لم يفقدوا الأمل فيه وقت محنته .. وقريته التى أخذت من قوتها لتدفع ثمن سلاحه ..

كان عبد الحليم يحاول المقاطعة ، لكن تدفق مشاعر وأحاسيس وكلمات بليغ مستمرة : يا حليم هذه حرب مؤجلة منذ ثلاث سنوات .. حرب خاضها نفس الجيش الذى قام بحرب الإستنزاف وبحماية نفس الحائط الصاروخى الذى كان جاهزا منذ ثلاث سنوات .. هل نسميها إذن حرب جمال عبد الناصر ؟ إننى أرفض ذلك أيضا .. فنحن جميعا تحملنا التضحيات من أجل هذه الحرب .. وشهداؤها خيط واحد متصل منذ معركة «رأس العش» وإغراق المدمرة إيلات .. يا حليم افهمنى ..

حينما استدار عبد الحليم بعينيه نحوى قلت له : يا حليم .. سوف تجىء مناسبات كثيرة تالية يتسع فيها الوقت لهذا الذى تريده . لكن فى هذه اللحظة المحددة بليغ معه الحق . وإذا أردت للحن أن يصل إلى قلوب الناس .. اترك بليغ على راحته . عندك كمال الطويل مثلا ، فى نشوة حماسه للعودة إلى التلحين . كان المعنى الذى انفعل به هو «خللى السلاح صاحى» .. والمعنى الآخر الذى لحنه لعفاف راضى هو «الباقى هو الشعب» .. دع بليغ لإحساسه ..

بعدها غنى عبد الحليم «عاش اللى قال» من ألحان بليغ حمدى وكلمات محمد حمزة.. حل وسط بين تلقائية ورومانسية بليغ .. ورغبات عبد الحليم حافظ .

❑❑❑

ثم تمضى الأيام .. وتأتى احتفالات ذكرى حرب أكتوبر متجددة سنة بعد سنة . وفى كل مرة يخفق قلب مصر الشعبية من جديد مع مجموعة من الأغانى ، فى مقدمتها دائما ما لحنه بليغ حمدى . لكن فى مقابل ذلك فإن مصر الرسمية لم تسمع أبدا ببليغ حمدى . ألقاب وجوائز وتكريمات من مصر الرسمية لكل من يستحق ولا يستحق تحت عباءة ذكرى حرب أكتوبر . لكن : يا مصر الرسمية .. أين بليغ حمدى ؟ نعم ؟ بليغ مين ؟ أنا ما أعرفوش ، ولا شفتوش ، ولا سمعتوش .. بتقول بليغ مين ؟!

ربما كان هذا هو ما دفعنى – فى المرة الوحيدة التى كتبت فيها عن بليغ حمدى – إلى أن أصب مشاعرى فى عامود كتبته فى «أخبار اليوم» بتاريخ ١٩٧٦/١٠/١٦ قلت فيه : «الأمومة ليست سلطة . إنها مسئولية .والأمومة ليست امتيازا . إنها عبء . والأمومة ليست ضمانا ضد الخطأ . وإنما هى قدرة على الرجوع إلى الصواب . والأمومة ليست واقعة مادية تؤدى بالضرورة إلى الحصول على الحب ثمنا ومكافأة . وإنما الأمومة هى أولا إعطاء الحب .. حتى بغير مقابل .

« وفى علاقة مصر بأبنائها هناك مشاعر مؤكدة بالأمومة . إنها ليست مشاعر خيالية ورومانسية وهائمة تربطنا بمصر كأبناء لها .. لأن مصر هى فى حياة كل منا أم حقيقية موجودة دائما فى حياتنا اليومية .. وتترجم نفسها بعلاقات محددة تربطنا بهذا التراب ، وهذا الشارع ، وهؤلاء الجيران ، وهذه الأسرة ، وهذه الصحيفة ، وهذه المدرسة .

« فى هذه الحدود فإن مصر أيضا ليست أبدا فوق مستوى الخطأ . وبالتالى فهى ليست فوق مستوى المراجعة .

« ولقد وقع خطأ من مصر نحو واحد من أبنائها يوم الجمعة الماضى ، فى الاحتفال الذى أصبح سنويا بعيد الفن . فى هذه المرة كرمت مصر عددا من أبنائها الذين ترجموا حبهم لمصر إلى فن .. فاستحقوا من مصر ما تلقوه من تكريم ، وأكثر .

ولكن واحدا سقط سهوا من القائمة . وهنا تبدأ المرارة . إنه لم يشك إلى أحد . ولم ينتظر شيئا من أحد . ولا توقع مكافأة من متعهد . إنه أحب مصر لأنها أمه . ونحن نشكو مصر لحسابه ، لأننا أبناؤها .

ان هذا الفنان الكبير الذى سقط سهوا ، كان هو بالصدفة أكثر من ملأ مشاعرنا حماسا وصدقا فى حرب أكتوبر . إنها كانت حربه الشخصية جدا ، بمثل ما كانت نكسة ١٩٦٧ هزيمة شخصية لـ ٣٥ مليون مصرى .

ولأنه وطنى ، وفنان ، وموسيقى ، فإنه استخدم موسيقاه للتعبير عن وطنيته . فكانت النتيجة هى أحلى الأغانى الشعبية التى بقيت من حرب أكتوبر . أغانى استمعنا إليها بأصوات عبد الحليم ووردة والمجموعة و.. و..

وحينما يعبر الابن عن مشاعره نحو أمه فإنه لا ينتظر منها ثمنا ولا مقابلا ولا حتى مجرد تكريم . إنه يعبر لأنه يحس .. ويحس لأنه يحب .. ويحب لأن هذا هو انتماؤه ، وقدره ..

ولكن .. ماذا إذا كانت الأم نفسها قد بدأت فى تكريم أبنائها ؟ ماذا إذا اختارت الأم واحدا من أبنائها تكرمه دون الآخر ؟

إن بليغ حمدى – الذى سقط سهوا من تكريم فنانى أكتوبر – سوف يظل دائما ابنا لمصر.. فنانا فى حبها .. وعاشقا فى إخلاصه لها .

«فقط .. كنا نتمنى أن نسمع من الأم كلمة حب لابنها الذى أحبها على بياض ، فلم ينافسه فى حبها أحد» .

كانت تلك هى كلماتى التى فوجىء بها بليغ منشورة كباقى القراء . وفى رد فعله كادت الدمعة تفر من عينيه كطفل صغير . نعم . يومها كاد يبكى

لكنه أبدا لم يتذمر أو يشكو . فى الواقع أنه استمر كعادته يغنى لمحبوبته التى عذبته أحيانا ودللها كثيرا وسكنته دائما . يغنى لمصر . حتى بعد عودته من غربته الاضطرارية ، وقبل فترة وجيزة من رحيله الأخير ، يتغنى بمصر بصوت شادية : «ادخلوها آمنين .. ادخلوها سالمين .. مصر بلد المخلصين .. مصر بلد المؤمنين».. إلخ . إن مصر بالنسبة لبليغ هى الناس البسطاء . كل الناس . إنهم كل جائزته . وهم أيضا سر عذابه .

فيما بين «يا حبيبتى يا مصر» و«مصر بلد المؤمنين» كانت مياه كثيرة قد جرت فى نهر النيل . بليغ نفسه ، بعد أن تنكر طويلا وراء أسماء بعض المؤلفين ، أصبح يكتب أغانيه بنفسه . وسواء بحكم الضرورة أو الاختيار ، فقد سجل نفسه مؤلفا غنائيا باسم «ابن النيل». والكتابة لم تكن بعيدة تماما عن متناول بليغ ، فالذين يحبون القراءة يصبحون غالبا محبين للكتابة . وذات مرة كنا عائدين معا من الإسكندرية فى سيارة بليغ . وحينما سألنى عن السبب فى حرصى على التواجد فى القاهرة قبل السادسة مساء ، شرحت له أن الرغبة تجددت لدى لزيارة الدكتور طه حسين . من تلك اللحظة ، وحتى أوصلنى بليغ إلى فيللا «رامتان» – بيت طه حسين بذلك الشارع المتفرع من شارع الهرم – تدفق حديث بليغ بلا انقطاع عن انبهاره منذ الصغر بأسلوب طه حسين . فهو يرى أن أسلوب طه حسين فيه من الموسيقى ما كان كفيلا بجعله موسيقارا كبيرا لو لم يتجه إلى الأدب .

❑❑❑

وبرغم معرفتى المسبقة بحب بليغ حمدى للقراءة ، وفى موضوعات متنوعة ، إلا أنه بين وقت وآخر كان يثير دهشتى من اهتمامه بالشأن العام . أحيانا ما تفرض الأحداث الجارية نفسها على أحاديثنا ومناقشاتنا . لكننى فوجئت به ونحن فى شقته الخاصة بمدينة الإسكندرية محتفظا بنسخة اشتراها من أحدث كتبى وقتها . كتاب بعنوان «.. وعليكم السلام» . الكتاب ضخم ويقع فى نحو ستمائة صفحة ، كان يمكن أن تصبح ألف صفحة لولا أننى كنت أخشى من ارتفاع ثمنه على القارىء الذى كتبت الكتاب خصيصا من أجله.

فلعدة سنوات كان لى حديث يومى فى إذاعة الشرق الأوسط فى برنامج باسم «من قلب إسرائيل». البرنامج مدته خمس دقائق ، وتعتمد فكرته على سؤال توجهه إلى المذيعة السيدة سوسن سامى مستمد من حدث ساخن أو تطورات طازجة . وطوال سنوات أيضا كانت تقارير إدارة المتابعة بالإذاعة تسجل أنه أصبح أكثر البرامج السياسية شعبية ، وهو شىء نادر بحد ذاته .

ومن بين سيل الرسائل التى كنت أتلقاها من مستمعى البرنامج .. كان يوجد نوع من الأسئلة التى تعبر عن فهم مسطح للصراع مع اسرائيل .. سواء تعبيرا عن عدم كفاية الثقافة السياسية المتاحة .. أم تأثرا بالدعايات الرائجة . ولفت نظرى أن أصحاب تلك

الرسائل ينتمون إلى واحدة من شريحتين : إما الشباب .. وإما متعلمين ومهنيين بمستوى أطباء ومهندسين ومحامين .. إلخ . وبالنظر إلى قصر مدة البرنامج ..فقد كنت أحتفظ بتلك الرسائل يوما بعد يوم .. مقتنعا بحق أصحابها فى التساؤل .. وواجبى أيضا بتقديم إجابات تقتضى إعادة طرح الحقائق المجردة الموثقة . حقائق الصراع العربى الإسرائيلى من جذوره.. تاركا للقارىء بعد ذلك أن يقرر لنفسه فى النهاية الموقف الصحيح .

هكذا صدر كتاب «.. وعليكم السلام» ، وهكذا فوجئت بأن «بليغ قد اشترى لنفسه نسخة منه ولم يشأ أن يطلبها منى . وفوجئت ثالثا بأنه قرأ الكتاب كاملا . وخطط بقلمه تحت فقرات محددة لكى يناقشنى فيها تفصيلا حينما تجىء المناسبة . وبقدر سعادتى بهذا الاهتمام من بليغ ، بقدر عزوفى عن الدخول فى مناقشات مطولة ، فلم أكن أريد للسياسة أن تحاصرنى من الباب للباب .

لكن «بليغ» كان يصر ويصر .. ورغبته فى المعرفة كانت تعبر عن فنان لا يريد أن يكون عابر سبيل .. وإنما يريد لعقله أن يستوعب ، ولقلبه أن يطمئن ، وفى قضايا لا يتوقع المرء أصلا أن تكون فى صلب اهتماماته .

❑❑❑

وفى إحدى المرات ، بعد عودتى من رحلة عمل صحفية طويلة بالخارج انتهت بالولايات المتحدة ، لاحظ بليغ بين عشرات الكتب التى اشتريتها فى رحلتى كتابا أمريكيا عن أشهر الأغانى وأكثرها رواجا . وتصفح بليغ الكتاب وهو فى حالة استغراب شديد : هذا كتاب غير عادى .. لماذا اشتريته ؟ إنه لا يضم فقط كلمات الأغانى ، ولكن أيضا النوتة الموسيقية لكل أغنية .. لماذا اشتريته ؟

وشرحت له الفكرة كلها . فأنا أزعم بأن الكتابة عن أى مجتمع تقتضى فهمه أولا . وجزء من فهمه يتجاوز السياسة والاقتصاد لكى يمتد إلى المزاج السائد أيضا .. وصدقنى يا بليغ .. حال الفن هو دائما من حال السياسة . وهنا تصبح الأغانى السائدة واحدا من أسرع المؤشرات للفهم . فأغنية مثل «طريقى» لفرانك سيناترا .. أو «تلك كانت أيام» لمارى هوبكينز تعبير عن حنين كامل للرومانسية . كذلك نجاح مسرحية غنائية مثل «رجل لا مانشا Man of La Mancha» .. المأخوذة أصلا عن حكاية «دون كيشوت» الإسبانية . هو شىء غير متوقع بالمرة فى مجتمع شديد المادية كالمجتمع الأمريكى .

وعلى الفور استعار بليغ منى كتاب الأغانى وشريط المسرحية .. فأحدهما يخاطب فيه الرغبة فى المعرفة .. والآخر يخاطب فيه عشقه الكامل للمسرح الغنائى . وبليغ له محاولات واجتهادات نشطة فى المسرح الغنائى .. بدءا من «مهر العروسة» إلى «تمر حنة». لكن المشكلة الأساسية كانت دائما حاجة المسرح الغنائى إلى تمويل كبير وديكورات مبهرة .

وبين وقت وآخر كان بليغ يكرر دعوته إلى الدولة لكى تتبنى إقامة مسرح غنائى يكون بحد ذاته نقلة فنية وحضارية كبيرة . عشرات وعشرات من الحوارات الصحفية والإذاعية والتليفزيونية كرر فيها دعوته تلك إلى الدعوة . وذات يوم بدا أن الدولة بأعلى سلطاتها ربما تكون قد استمعت إلى بليغ حمدى . لقد أمر الرئيس أنور السادات باعتماد مائة الف جنيه – مبلغ معتبر تماما بالمقاييس السائدة حينئذ – لتقديم مسرحية غنائية كخطوة أولى . وحينما دقق بليغ حمدى فى الخبر المنشور تبين أن السادات اختار لتنفيذ تلك الرغبة.. زكى طليمات .

❑❑❑

وفى إحدى المراحل ، حينما كان البال رائقا والحماس متدفقا والدنيا ربيع والجو بديع بتعبير صلاح جاهين ، كان بليغ يغرينى بالكتابة للمسرح الغنائى . وضمن أوراقى الخاصة التى أعتز بها كثيرا مسرحية غنائية كتبت لها الفكرة والحوار ، وشرع بليغ فى كتابة بعض كلمات أغانيها .. زائد تصوره للديكور والحركة المسرحية . ودائما فإن الأغانى والفكرة ، من بعيد ومن قريب ، تخاطب المحبوبة المشتركة والحلم المشترك . تخاطب مصر .

لكن الأحلام تتكسر أحيانا على صخور الواقع . والواقع يصبح مأساويا حينما تصبح القضية الحاكمة هى الدفاع عن حق البقاء .. أصلا . وهنا مرة أخرى .. جمعتنا أشياء ، وفرقتنا أشياء . لكن الخيوط لم تنقطع بالمرة .

كل ما هناك أننى وجدت نفسى مسحوبا إلى معركة أدافع بها عن قلمى . فبالسلطة الغاشمة المغرضة جرى منعى من الكتابة فى جريدتى «أخبار اليوم» . وحينما عوضت هذا بالاستجابة لدعوات كريمة من صحف خارج مصر لاستضافتى ونشر مقالاتى .. جرى الضغط على للامتناع عن الكتابة خارج مصر . وحينما لم يأت الضغط بمفعوله جرى

الإلحاح على وزير الإعلام فى القاهرة – بمخاطبات مكتوبة – لمنع الإذاعة والتليفزيون من استضافتى فى برامجهما . وحينما فشل ذلك كان السلاح الأخير هو دس اسمى ضمن نخبة مختارة من الكتاب والصحفيين وأساتذة الجامعات الذين صدر قرار جمهورى ذات ليل فى سبتمبر ١٩٨١ بمنعهم من الكتابة أو التدريس بالجامعات نهائيا .

وفى حالتى الخاصة اكتشفت أن المنع امتد ايضا إلى وقف مسلسل درامى كان يذاع طوال شهر سبتمبر فى ثلاثين حلقة بإذاعة البرنامج العام باسم «المتمرد» ومن بطولة أحمد زكى وصفية العمرى وأخراج إسلام فارس . لقد جرى وقفه من الحلقة الخامسة عشرة . و.. فوق البيعة .. وجدت نفسى بالمرة .. ممنوعا من مغادرة مصر حتى إشعار آخر . لقد احتاج الأمر زلزالا سياسيا فى مصر ، وسلطة جديدة ، لإعادتى إلى الصحافة ضمن الدفعة الأولى فى يناير ١٩٨٢ . مع ذلك بدا أن النفوس الشريرة مستمرة فى غيها ، وإن يكن بوسائل أخرى من تحت الحزام .

أما بليغ حمدى فقد امتحنه الواقع المريض بمعركة أشد ضراوة وهولا . معركة يدافع بها عن سمعته . شرفه وسمعته . وبتلك الصفة أصبحت معركة بليغ لا تتعلق فقط بحق البقاء . إنها تتعلق بما هو منخفض عن ذلك كثيرا جدا . أنت بتقول بليغ حمدى ؟ بليغ مين ؟

❑❑❑

إننى أتذكر جيدا تلك المرة التى اتصلت بى فيها شقيقته «صفية» تليفونيا لكى تعاتبنى : لماذا لم تعد تزور بليغ أو تسأل عنه ؟ عرفت منه أنه دعاك عدة مرات ولم تلبّ الدعوة . لماذا ؟ بليغ يحتاج إليك بشدة . لا .. لا .. ليس هناك شىء سىء . فقط ما أراه من أنه منذ طلاقه من «وردة» بدأ بيته يصبح سداح كداح . أنا قلقانة من غير أى شىء محدد أقوله لك.. يا ريت تخليك مع بليغ اليومين دول .. فى الآخر هو بيثق فى كلامك ..

لم أكن أعرف بالضبط عن أى شىء تتحدث صفية . لكننى أعرف فقط أن بليغ كان متعلقا بأمه بشدة . ومنذ وفاتها أصبحت صفية تحاول أن تسد هذا الفراغ العاطفى عند بليغ، وخصوصا منذ طلاقه من «وردة» . لكن هل المشكلة هنا يمكن أن تكون مبالغة صفية فى القلق ؟ حدث هذا كثيرا من قبل . لكن فى هذه المرة تبدو صفية أشد قلقا من أى مرة سابقة . إنما : لا وقائع . مجرد عدم ارتياح من بعض الوجوه . مجرد قلق على بليغ .

كنت سأسافر فى اليوم التالى إلى الخليج بدعوة من إحدى الصحف التى تنشر مقالاتى الأسبوعية . وقد وعدت صفية بأنه بمجرد عودتى سوف أجلس مع بليغ لكى أفهم منه .

يوم ويومان .. وإذا بى أقرأ فى الصفحات الأولى من صحف الخليج الخبر الصاعقة . خبر التحقيق الجنائى مع بليغ حمدى بعد أن جرى العثور على جثمان مطربة مغربية ناشئة اسمها «سميرة مليان». وبليغ هو الذى أبلغ الشرطة بالحادث ، مقررا أنها انتحرت بإلقاء نفسها من الشرفة الخلفية لشقته وهو نائم .. بعد أن تركها أولئك الذين جاءت أصلا فى صحبتهم .

كنت مدعوا لكتابة مقالى الرئيسى المعتاد بالصفحة الأخيرة من الجريدة التى جئت ضيفا عليها . ووجدت نفسى تلقائيا أكتب عن بليغ حمدى وذلك الحادث الغريب الشاذ بكل المقاييس . وببساطة شديدة ، كنت مقتنعا تماما بأن بليغ حمدى نفسه هو أكبر ضحايا الحادث ، أولا من معرفتى بنوع الحياة التى يعيشها فى منزله . ثم خصوصا من خلال الملابسات الغريبة المحيطة بالحادث .

واتصل بى فى الفندق رئيس تحرير الجريدة .. وهو صديق قبل أى شىء . إنه يقول بلطف وكياسة : أنت بالطبع تعرف أن القراء هنا يتجاوبون معك تماما ويثقون فيما تكتبه . لكننى أخشى عليك فى هذه المرة . الناس معبئون تماما ضد بليغ حمدى .. ومن خلال ما يجرى نقله عن صحافة القاهرة . إن لك علاقتك المباشرة مع القراء . ومقالك يحمل اسمك وصورتك . وبالتالى فلك الحق كاملا لتقول للقارىء ما تعتقده . لكننى أردت فقط أن أعبر لك عن حرصى عليك كصديق ، ومصداقيتك عند القراء . إنه قرارك .. ننشر المقال ؟ عظيم .. ننشر المقال .

❑❑❑

وفى الطائرة عائدا إلى القاهرة كنت ما أزال غير مصدق . إذا كان هذا هو الموقف من بليغ فى الخليج ، نقلا عن صحافة القاهرة ، فكيف يكون الموقف فى القاهرة ذاتها ؟ إن بليغ يمكن محاسبته عن إهماله .. عن ذلك القدر من الفوضوية فى حياته ، بل حتى عن أسلوب حياته ذاتها . لكننا فى هذه الحالة المحددة أمام حقيقة أولئك الضيوف فى تلك الليلة الذين سمحوا لأنفسهم بالسهر فى بيته بعد أن دخل صاحب البيت نفسه – بليغ حمدى – إلى غرفته لينام . فقط لكى توقظه راعية البيت فى الصباح المبكر مذعورة ، حينما

اكتشفت بالصدفة تلك الحقيقة المفجعة . حقيقة أن واحدة من ضيوف الأمس قد غافلت من جاءت معهم أصلا .. وانتحرت من الشرفة الخلفية للبيت .

وبعد أن عدت إلى مصر جاء الاكتشاف الآخر . لقد دارت عجلة الإثارة الصحفية بكل قوتها لكى تدين بليغ حمدى من قبل أى محاكمة .. بحيث إنه فى اللحظة التى تجرى فيها المحاكمة القضائية .. سيكون بليغ حمدى قد جرى اغتياله معنويا بالكامل .. وجرت إدانته مسبقا . وبدلا من أن يصبح الرأى العام فى حالة انتظار لما يقوله القضاء .. فإن القاضى ذاته سيصبح أسيرا للرأى العام .. أو ما يحمل شبهة الرأى العام .

أما من حيث بليغ حمدى نفسه ، فقد بدأ يتحول إلى كاريكاتير . إنه ينكمش نفسيا يوما بعد يوم داخل ذاته ، مرتاعا من حجم هذا التشفى الغامض الذى لا يعرف أسبابه . فى الواقع إن الحواديت تضخمت وتضخمت ، إلى درجة أننى ذات مساء بدأت أسمع روايات تتنافس مع بعضها عما جرى : لا .. أنت لا تعرف كل الحقيقة .. لقد كان فى السهرة خمسة وزراء .. لا .. لا .. كان هناك فلان وفلان من الأمراء العرب . لا .. لا .. الكلام ده من سنين وسنين .. إياك تكون فاهم إن بليغ هو اللى بيصرف على نفسه .. تحب أقول لك عن آخر شيك جاله من الأمراء دول ؟ .. أقول لك كمان إيه اللى كان بيحصل فى بيته كل ليلة ؟ ..

يا خبر ؟ كل ليلة ؟ وبمثل تلك «المعلومات» الدقيقة ؟ إذن كيف وجد بليغ الوقت ليلحن ٣٠٠٠ أغنية ؟ منها إحدى عشرة أغنية لأم كلثوم أكبر عملاق غنائى فى تاريخ العرب ؟ لابد أن بليغ هذا يعيش بسبع أرواح .. كده .. والا إيه ؟ . لكن لا جواب . عند الحجة والمنطق والعقل .. لا جواب .

فبعد كل ما جرى من إثارة صحفية . واغتيال معنوى للشخصية ، أصبح الجميع يستحلون لأنفسهم أن يصبحوا قضاة ، بل جاهزون مسبقا بأحكام الإدانة . وفى مسار تلك القضية كانت هناك أكثر من علامة استفهام وأكثر من استدارة حادة .. بعضها أصبح عبئا على العقل والقلب . وبعض النفوس المريضة تستفز مشاعر الناس بإشاعات مجهولة المصدر والدوافع .

الناس .. الناس .. الناس .

كانوا حلم بليغ حمدى . الآن أصبحوا قضاته . ولأنهم من الأصل يرتبطون معه بعلاقة من الحب ، فقد أصبح يتم رسميا طمأنتهم باستيفاء الشكل .الآن أصبحت اللهجة هى : جهزوا حبل المشنقة .. حتى نبدأ فى المحاكمة العادلة لهذا المتهم .

□□□

ذات غداء سألنى الموسيقار محمد عبد الوهاب مداعبا : يا أخى أنا والله مستغرب من صداقتك مع بليغ حمدى . طيب .. كمال الطويل .. معقول . محمد الموجى .. عبد الحليم .. معقول . إنما .. أنت وبليغ ؟ من أين يأتى التوافق ؟ هو قصير وأنت طويل . هو يحب الفوضى وأنت تحب النظام . هو يرتاح فى الدوشة وأنت ترتاح فى الهدوء . هو يحب السهر كثيرا وأنت تنام مبكرا . هو مسرف فى مجاملاته وأنت عقلانى جدا . هو يأخذ نظام حياته باستخفاف وأنت تأخذه بجدية . هو يعشق الزحام وأنت تألف الوحدة . هو مناور أحيانا وأنت صريح دائما .. عايز أعرف .. كيف تتحمله ؟

لحظتها قلت لمحمد عبد الوهاب : ولماذا لا تعكس السؤال ؟ لماذا لاتقول .. كيف يتحملنى هو ؟

ضحك محمد عبد الوهاب .. مقررا بذكاء أن عليه تغيير الموضوع .

ودارت الأيام . فبعد ذلك الحادث المفجع فى بيت بليغ حمدى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨٤ ، وبالتأكد من أن الحادث انتحار ، تم حفظ الدعوى الجنائية . لكن بعد شهور قليلة ، ومع تعيين نائب عام جديد ، جرى فجأة تحريك الدعوى الجنائية من أول وجديد .

هكذا جرت المحاكمة جلسة بعد جلسة .. وفى المتابعة القانونية كرر بليغ حمدى خطأه المعتاد : لقد وضع ثقته الكاملة فيمن لا يستحقها .. معتمدا على حقيقة أنه مظلوم وضحية فى القصة كلها .

وفى العاشر من فبراير ١٩٨٦ أصدرت محكمة أول درجة حكمها : حبس بليغ حمدى لمدة سنة مع الشغل ، وكفالة ألف جنيه لوقف التنفيذ ، ووضعه تحت مراقبة الشرطة مدة مساوية لمدة العقوبة .

قبلها بشهر تقريبا كانت مأساة بليغ حمدى هذه موضع حوار مطول بينى وبين محمد عبد الوهاب . كنت فى حينها قد توليت رئاسة تحرير جريدة صغيرة اسمها «الأحرار»

كتجربـــة مؤقتة أخوضها إلى جانب عملى فى «أخبار اليوم» .. مدفوعا إلى التجربة بدوافع عديدة فى مقدمتها أننى ممنوع من الكتابة أساسا فى جريدتى الأصلية ، ولأننى كذلك أريد أن أختبر فى التطبيق مفاهيمى الخاصة للصحافة المختلفة .

اندمجت تماما فى هذا التحدى المهنى .. محاطا بطوفان من مشـــاعر الحب أكرمنى به زمـــلاء وزملاء من الصحفيين الموهوبين الذين تركوا صحفهم لكى يعملوا معى ولو بملاليم ، وأيضا من شباب واعدين ما يزالون طلبة فى كليات الإعلام . وبقدر سخاء المشاعر كان فقر الإمكانيات . لكن مع تبلور التطوير الجديد فى الجريدة بدأ إقبال القراء يتجســد فى أرقام التوزيع . فبعد انهيار توزيع الجريدة سابقا إلى أقل من ثلاثين الف نسخة ، تحرك التوزيع بانتظام وســرعة إلى خمســين .. إلى سبعين .. إلى مائة ألف .. وفى نهاية المطاف إلى مائة وستين ألف نسخة حينما تركت الجريدة .. أو تركنى أصحاب الجريدة .

فى مســار تلك التجربـــة ، ومنذ الأعداد الأولى التى توليت رئاســـة تحريرها .. كانت تلاحقنى مكالمات أصدقاء كبار عديدين .. فى مقدمتهم الموســيقار محمد عبد الوهاب . إنه يتحدث معى مهنئا بحرارة ، مشجعا لى على المزيد ..

وسألته ذات مرة : هل هذه الكلمات للمجاملة .. أو لأنها رأيك بجد ؟

رد عبــد الوهاب ضاحكا : آه .. أنا عــارف إنك دايما بتتهمنى بكثرة المجاملة . لكن أحلف لك بإيه المرة دى علشان تصدق ؟

قلــت لــه : لا تحلــف . فقــط .. اعمــل لى خدمــة .. اكتــب مقالا باسمك لأنشــره بالجريدة ..

ســكت عبد الوهاب لحظات قبل أن يســألنى : أنت بتتكلم بجد ؟ طيب أنا موافق .. لكن طبعا إنت اللى تكتبه لى ..

وأجبته : نعم .. سأكتبه لك من حصيلة مناقشاتنا معا . أليس من رأيك ان بليغ حمدى مظلــوم ؟ وأن الصحافــة مذنبــة ؟ وأن البلوى التى جرت لايجب أن تجعل الناس قســاة القلــوب على بليغ حمدى لأنه هو أيضا ضحية ؟ وأن الحملة الجارية والمتصاعدة هى أكبر جدا من بليغ حمدى وتمتد لتشمل كل ما هو فن مصرى ؟

قاطعنى عبد الوهاب مستدركا : لكن ...

قلت له قبل أن يكمل : نعم هناك دعوى تأخذ مسارها أمام القضاء . والمقال الذى أقترحه عليك لن يتعرض لها مطلقا . وحتى اسم بليغ حمدى لن يرد فى المقال بالمرة . فقط سنتناول فى المقال قيمة الفنان . قيمة مصر . مسئولية المجتمع . معنى العطاء . خطورة التشفى . جناية الإثارة الصحفية . وبذكاء القارىء المصرى سيعرف الجميع أنك تتحدث عن بليغ حمدى .

مرت دقيقة من الصمت بيننا عبر أسلاك التليفون تخيلتها دهرا كاملا .

وفجأة .. قال محمد عبد الوهاب : أنا موافق .. اكتب المقال باسمى .. وعلى خيرة الله ..

تنفست الصعداء .. وقلت له : سأكتب المقال فورا .. لكن لا بد أن أقرأه عليك كلمة كلمة لأنه فى النهاية سيحمل اسمك . إذن .. بالكثير بعد ساعة سأطلبك لكى تعدل فيه كما تشاء .

❑❑❑

أن محمد عبد الوهاب الآن فى رحاب الله . والرجل كانت له فى نفسى مكانة كبرى بمثل ملايين من الناس . وهو كانت له خصال إيجابية عديدة . لكن لم يكن من بينها الشجاعة فى مواجهة الرأى العام . كما أن العلاقة الشخصية بينه وبين بليغ حمدى لم تكن دافئة . ثم إننى فى سن أولاده . وهو نفسه كان يداعبنى كثيرا بقوله : «فى أحيان كثيرة أحس أنك ابنى . لكن فى أحيان أخرى ، لا أنت ابنى .. ولا أنا أعرفك».

لم تكن لى إذن أية سلطة يخشاها محمد عبد الوهاب .. ولا مصلحة يتبادلها معى . كل ما فى الأمر هو قدر من الثقة المتبادلة زرعتها التجارب بيننا . ولو كان محمد عبد الوهاب قد رفض فكرتى فإننى لم أكن لألح عليه . لكنه – بتجرد ونزاهة وعقل يقظ – لم يعدل كلمة واحدة فى مشروع المقال حينما قرأته عليه .

وهكذا فإن ذلك العدد من الجريدة الذى صدر فى ١٣ يناير ١٩٨٦ حمل فى صدر صفحته الأولى إشارة إلى محمد عبد الوهاب الذى يكتب مقالا لأول مرة . أما المقال فعنوانه «إننى أشكو الصحافة .. إلى الصحافة» . ويكفى هنا أن استرجع منه . وهو المقال الذى يحمل توقيع عبد الوهاب وصورته ، فقرته الأخيرة التى يقول فيها : «.. وحينما يبالغ

البعض فى تحميل سلوك هذا الفنان أو ذاك بأكثر مما يحتمل .. وحينما يمارس البعض محاكمات مستمرة لكل الفنانين المصريين بحجة أو بأخرى .. فإنهم بذلك لا يقللون من مكانة الفن والفنانين فقط ، ولكنهم بذلك يقومون – بغير وعى غالبا – بوضع المزيد من الألغام فى طريق الريادة الفنية المصرية فى العالم العربى . إن هناك دولا نعرفها جميعا مستعدة لإنفاق ملايين الملايين حتى يكون لها بعض هذه الريادة المصرية فى العالم العربى . فدعونا لا نعطى عن حسن نية ذلك النوع من الذخيرة الذى يستخدم فورا ضد مصر والمصريين جميعا» .

فى اليوم التالى اتصل بى بليغ حمدى قائلا فى تأثر بالغ : أريد أن اشكرك ..

قلت له متسائلا : على ماذا يا بليغ ؟

قال بليغ : معقول عبد الوهاب يعمل كده ؟ طبعا أنت اللى أثرت عليه ..

قلت له : أنت مخطىء يا بليغ . الفكرة كلها من عبد الوهاب ولا دور لى فى أى شىء سوى الصياغة . وإذا كان هناك من يستحق الشكر منك فهو عبد الوهاب نفسه . أرجوك يا بليغ .. هو متعاطف معك جدا .. وسيكون شيئا جميلا لو أنك طلبته لتشكره ..

كنت فى الحقيقة أريد أن أمتص جزءا ، ولو يسيرا ، من تلك المرارة التى تراكمت داخل بليغ حمدى من الناس . كل الناس . وفى إحدى النقاط لم أعد أعرف أيهما أكبر من الآخر : الوحشية التى يتم بها سلخ سمعة بليغ حمدى ومكانته .. أم مرارة بليغ نفسه مما يجرى به على رءوس الأشهاد .

وحينما صدر حكم أول درجة بحبسه سنة ، لم تكن هى الكلمة الأخيرة ، فالقضاء المصرى يستمد ضماناته للعدالة من داخله . لكن المسألة أصبحت هى «الثمن» . كم من الثمن سيصبح على بليغ أن يدفعه من سمعته وكرامته وحياته وسط جبال من علامات الإستفهام.. قبل أن ينصفه القضاء المصرى فى نهاية المطاف ويرد إليه اعتباره !

❑❑❑

نعم أنصفه القضاء . أنصفته محكمة النقض .. أعلى محكمة فى القضاء . وعاد بليغ حمدى بعد خمس سنوات فى الغربة الموحشة ، وهو الذى لم يكن يطيق الابتعاد طويلا عن مصر .

وقبيل صدور حكم محكمة النقض بأسابيع قليلة كانت السيدة المطربة عفاف راضى قد جاءتنى باكية ، وبصحبتها السيدة «صباح» راعية بيت بليغ حمدى وفى مقدمة الأوفياء له . كانت عفاف قد تلقت لتوها مكالمة تليفونية من بليغ فى باريس . مكالمة خلاصتها أنه يريد العودة إلى مصر ويدخل بقدميه إلى السجن بغير أن ينتظر حكم البراءة من محكمة النقض .. لأن وطأة الغربة أصبحت مرضه المستجد بقسوة .. فأصبح يريد أن يموت فى مصر ، ولو سجينا ، ولا يعيش حرا فى باريس .

يومها كان يزورنى الصديق مكرم محمد أحمد ، وهو فى حينها رئيس تحرير مجلة «المصور» ورئيس مجلس إدارة دار الهلال . وأصبحت وطأة الانفعال طاغية حينما تساءلت عفاف راضى : هل يمكن توفير الأدوية اللازمة لبليغ فى السجن بقدر ما أصبحت تستلزمه حالته الصحية المتدهورة ؟ مجرد الأدوية ؟

استمرت التساؤلات والتساؤلات .. ومعها استمرت أيضا مراحل القضية . ثم .. جاءت الكلمة الأخيرة للقضاء المصرى لكى تبرىء بليغ حمدى وترد إليه اعتباره .

لكن بليغ العائد أصبح شخصا مختلفا . أصبح شبحا ز أو ظلا . أو خيالا من ماض متوهج ، وحاضر لم يكتمل . وعلى حد تعبير محمد الموجى فإن بليغ كان مملوءا بالموسيقى . الشجن والوحدة والغربة والعذاب والفوضى والألم ... والموسيقى .

❑❑❑

كيف تزورنى إذن ، يا صديقى بليغ ، لكى تطلب منى لأول مرة أن أكتب ؟ إنك حتى لم تسعفنى بالا ووقتا وصحة . لقد كانت هناك بحار عميقة أخرى من الذكريات بيننا .. والأحلام الغضة فى قلوبنا .

لكنك يا أخى فاجأتنا بالصمت .. والرحيل .

كيف أكتب إذن .. وأنت الصديق الذى اختار الرحيل فى منتصف الجملة .. الموسيقية ؟ وعن أى جزء أكتب : عن نصف الجملة الذى قلته .. أو النصف الآخر الذى كنت تريد أن تقوله ؟

فيما بعد النشر ..

بعض وقائع .....

واقعة أولى : لم أكن أعرف أن مجلة «أكتوبر» يجرى طرحها فى القاهرة مساء الجمعة ، فالعدد يصدر حاملا دائما تاريخ السبت . عرفت ذلك فقط حينما أيقظنى رنين التليفون بجانبى فى السادسة صباحا .

وعلى الطرف الآخر جاءنى الصوت مختنقا ومتقطعا . إنه صوت الصديق الموسيقار محمد الموجى يطلب منى رقم التليفون الخاص بالصديق الأستاذ صلاح منتصر ، رئيس تحرير مجلة «أكتوبر» .

صباح النور يا موجى . لماذا فى هذا الوقت المبكر وأنت الذى تستيقظ فى العادة متأخرا ؟

رد محمد الموجى : لأننى جئت معى فى عودتى إلى المنزل بعد منتصف الليل بمجلة «أكتوبر» حينما وجدتها تفرد غلاف العدد كله لصورة بليغ حمدى ، منوهة بمقال عنه يحمل اسمك . الآن فقط انتهيت من قراءة المقال للمرة العاشرة والدموع كادت تنساب من عينى . أنت لم تنصف بليغ حمدى فقط .. أنت أنصفت الفن والحقيقة . إنما الجديد هو أن يختار رئيس التحرير الاهتمام بالمقال وإبرازه على هذا النحو . من هنا أريد الاتصال به شخصيا لكى أعبر له عن امتناننا جميعا .....

واقعة ثانية : لم يكن قد مر على رحيل بليغ حمدى سوى أسابيع قليلة ، تدفق خلالها حب الناس له كالشلال .

وباسم الحب ، أو نوع خاص مزيف من الحب ، ظهرت فرقة جراد بشرية فى المدينة ، أو فرقة مرتزقة معنى آخر ، لكى تبشر بأنها فى سبيل إعداد فيلم سينمائى محوره انتحار تلك السيدة المغربية فى بيت بليغ حمدى . ضاع الفن . ضاع التاريخ . ضاعت الحقيقة . وبقيت فقط «فهلوة» الارتزاق من بليغ حمدى راحلا بعد أن انتهى الارتزاق منه حيا .

واقعة ثالثة : اتصلت بى «صفية» الشقيقة الكبرى لبليغ حمدى فى خمس مكالمات تليفونية متتابعة . مكالمات

بدأت بحديثها عن حضورها الليلة لحفل غنائى بمسرح البالون تكريما لبليغ حمدى . لكنها تشتم شيئا غير مستقيم فيما توارد إلى سمعها . فى مكالمة ثانية وثالثة تلح على بتفسير قد أملكه لشىء لم أعرفه أصلا . فى المكالمة الرابعة تحول صوتها إلى ما يشبه الاستغاثة.. والبكاء . تصور .. يقولون فى الكواليس إن الحفل يتأخر عن موعده لأن الموسيقيين يشترطون تقاضى أجورهم أولا .. رغم أنهم جاءوا اصلا متطوعين بالعزف مجانا.. وفاء لبليغ حمدى . فى المكالمة الخامسة يتهدج صوت صفية وتتقطع كلماتها بينما هى تشرح لى التفسير الذى قاله لها الموسيقيون لتصلبهم . هم رحبوا أصلا بالمجىء وبالعزف مجانا تكريما لاسم ومكانة بليغ حمدى . لكنهم قبل رفع الستار اكتشفوا سرا مفاجئا كشف عنه شجار بين اثنين من «صراصير» المدينة .. كل منهما يقول ان الحفل من تنظيمه هو ، ولحسابه هو ، وكل منهما باع تسجيلات الحفل مقدما وقبض الثمن . من هنا غير العازفون موقفهم . أرادوها فنا .. وأرادها «صراصير» المدينة استرزاقا وتجارة .

مكالمة صفية الأخيرة انتهت فى الحادية عشرة مساء.

وفى الصباح التالى قرأت بالصفحات الأولى من الصحف الخبر المروع : وفاة صفية ، شقيقة بليغ حمدى ، بالسكتة القلبية . الوفاة جرت بمسرح البالون . الوفاة جرت فى الحادية عشرة والربع مساء .

obeikandl.com

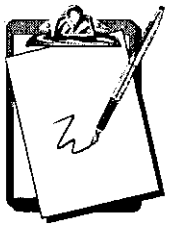

أفكار .. مستر زوربا

«.. كنت أريد نجاحا مدويا فكان نصيبى فشلا مدويا .. أنا جربت طعم الهزيمة مرات كثيرة وسنوات طويلة . Yن الحياة تلسعنا أحيانا ، ولكنها حرقت أصابعى غالبا .. أنا معك فى أننى مثل أى ممثل آخر ، جائع لشهرة أكبر ، ومال أكثر .. ولكننى أختلف عن أى إنسان آخر فى أننى أريد أولا طعما أحلى لحياتى .. آه .. أختلف أيضا فى شىء آخر : أولادى .. أنا خدعت الناس أحيانا ، وخدعونى كثيرا ، ولكن لا مرارة .. أنت تذكرنى بشبابى كثيرا ، فهل .. هل .. تسمع أغنيتى المفضلة ؟!»..

كانت الكلمات تتساقط هكذا من بين شفتى الممثل العالمى أنتونى كوين ، بينما نحن – هو وأنا وصديق ثالث – نتناول العشاء معا فى فندق هيلتون بمدينة نيويورك . إن إعجابى بأنتونى كوين كممثل فوق العادة يجعلنى متحفظا . إنه يتكلم ويبتسم ويتذكر ويضحك ويتكلم من جديد .. صوته عريض عميق له نبرة مؤثرة . عيناه واضحتان وملامحه تبدو جافة الآن ورقيقة بعد لحظة . وجهه يتجعد بسهولة ويبتسم فى بساطة . وجه غير وسيم . وجه قروى . وجه متشرد . وجه ربما تراه مرة واحدة ولكنك لن تنساه أبدا . إن الأبيض فى شعره بدأ يتزاحم مع الأسود (عمره ٥٧ سنة) . والبساطة فى حديثه تطغى على الخبرة . إننى سرحت كثيرا أثناء حديثه ، ولكننى أفقت على هذه الجملة منه : «إننى أخشى أن أصبح عجوزا دون أن أدرى»! كلمات يؤمن بها أنتونى كوين ، نقلا عن الزعيم الفرنسى الراحل شارل ديجول . عظيم .

إن عظمة أنتونى كوين بالنسبة لى الآن تتركز فى الكبارى الكثيرة التى عبرها فى مراحل حياته . إن الطعام يدخل فمى متبادلا الدور مع الكلمات التى تدخل أذنى من حديثه.

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٢/٦/٢٤ .

إنــه يقــول : «.. الناس ينجحــون غالبا قبل الثلاثين . أنا لم أكتشــف حظى إلا قبل الخمســين .. وفى وقت ما أحســت بأننى لو خرجت من الدنيا نصف عاقل فهذه نعمة من الله !..

«طبعا تعلم أننى كنت فى الأصل أعمل مساعد مخرج . مساعد المخرج العظيم الراحل سيسيل دى ميل .. وعندما أتاح لى سيسيل فرصة ضخمة ، بإعطائى مهمة إخراج فيلم (القرصان) سنة ١٩٥٨ ، فشل الفيلم بجدارة ، وفشلت أنا معه بقسوة . لقد كانت كارثة العمر ..

«.. أنــا لا أحب اليأس . لهذا نهضــت وحاولت من جديد . حاولت وحاولت وأعتقد أننى حققت الآن شيئا فى السينما .. شيئا لنفسى على الأقل ..

«.. فى الخمســة وعشــرين عاما الأخيرة هبط جمهور السينما الأسبوعى هنا فى أمريكا من ثمانين مليونا إلى ١٦ مليونا .. تصور ؟ لقد هبط الإنتاج أيضا من ٣٧٨ فيلما إلى مجرد ١٤٣ فيلما فى السنة . هذه أزمة كبرى . أزمة لن ينقذنا منها سوى حلين : التكنولوجيا.. والقصة ..

«.. القصــة الجيدة هى المفتاح الســحرى لحل أزمة الســينما .. الــدم الجديد . القصة الشــابة . القصة التى لا تبتعد كثيرا عن الواقع الإنســانى . قصتى وقصتك وقصة الرجل العادى . رجل الشارع . القصة هى المشكلة . والقصة هى الحل ..

«.. إن هوليود مدينة مليئة بالنفاق . الممثلون فقدوا صلتهم بإنسانيتهم . صلتهم بالمعنى لإنســانى للحياة . بالغضب الحقيقى ، أو بالحب الحقيقى . صلتهم بالسعادة البسيطة.. أو بالخــوف الــذى تتذوقه .. أو الفكرة التى تحترق بها . الشــعور بأن الحياة تدق داخل عظامك ..

«.. اسمــع ، أنا أحب أن يكــون لى صديق مثلك فى القاهرة ، أدعوه ويدعونى .. لماذا لا تحضر معى الآن هذا المشــهد الذى ســنصوره اليوم ؟ إذا لم تفعل ذلك من أجلى ، فعلى الأقل من أجل صديقك وصديقى : فؤاد .. هه ؟ إيه رأيك ؟»..

قلت : أوكى .. أنتونى ! ..

قال : ســمنى تونى ..

قلت : فى الحقيقة أنت بالنســبة لى دائما مســتر زوربا اليونانى . مع ذلك .. أوكى ، تونى !

□□□

جاهزين ؟

أجاب مدير التصوير على سؤال المخرج : نعم .

بدأ التصوير .

السيناريو : «أنتونى كوين – اسمه فى الفيلم (ماتيللى) – يسير ثم يقف هناك ، محملقا فى لا شىء بقوة عاتية . إنه يفكر .. ربما فى حمامه القادم . ربما يفكر أيضا فى زوجته . إنه يهز رأسه عدة مرات ، كما لو كان يقول : هذا شىء لم يحدث .. لايمكن أن يكون صحيحا .. ومع زوجتى نفس الشىء . إنها مخطئة .. ولكن ، كيف تدرك هى ذلك ؟ ..

ستوب ..

توقف التصوير . انتهى المشهد . أنتونى كوين يجلس فى الركن على بعد عشرة أمتار منا . إنه أمامنا ولا يرانا . إنه الآن يقرأ المشهد التالى ، بعد أن وضع النظارة الطبية فوق أنفه . لقد بدأ يقرأ . بدأ يمثل . بدأ يعيش . بدأ يتنفس . إن هذا الرجل الذى كان يتعشى معنا منذ ساعة لم يعد موجودا . بدلا منه .. نحن الآن أمام «ماتيللى» . ضابط البوليس «ماتيللى» . شخصية أكثر واقعية وتعقيدا من الرجل الذى تعشى معنا . إن «ماتيللى» له الآن طريقة مختلفة فى التنفس ، فى التفكير ، فى التدخين ، فى السعال ، فى الحديث ، وفى مضغ الفول السودانى .

فؤاد سعيد يهمس فى أذنى : هل أنت مستريح ؟

إن فؤاد هو المنتج المشارك للفيلم الذى يجرى تصويره الآن . فيلم يتكلف مليونين من الدولارات . فؤاد هو أيضا مخترع نظام الأستوديوهات المتنقلة – يسمونه هنا سينيموبيل – الذى أنقذت به هوليود نفسها فى السنوات السبع الأخيرة . فؤاد مصرى هاجر منذ ١٧ سنة وهو الآن أمريكى الجنسية . فؤاد هو – أخيرا – الذى عرفنى بأنتونى كوين ، وحجز لنا حجرتين متجاورتين فى الهيلتون . هكذا أصبح علينا نحن الثلاثة – أنتونى كوين وفؤاد وأنا – أن نعيش معا ليل نهار لعدة أيام تالية .

قلت لفؤاد سعيد : نعم أنا مستريح ولكن .. لماذا لا نتجول بالسيارة قليلا ؟

حسنا . ليه لأ ؟

❑❑❑

الصباح . الجو اليوم ممطر . بارد ورطب وممطر .

❑❑❑

سؤال يثير فضولى : لماذا يمثل .. الممثل ؟

حينما يأتى أنتونى كوين الليلة .. لابد أن أسأله هذا السؤال .

❑❑❑

فى عقلى .. مغص . فى تفكيرى ، فى تصرفاتى ، فى برنامجى .. مغص وتوتر ورغبة فى الفرار . الفرار من هذه المدينة ـ نيويورك . أريد أن أقول وداعا لصباحى المتكرر فى الأوتوبيس المزدحم .. للخمسة وثلاثين سنتا التى أدفعها لسائق متجهم عبوس . لفنجال القهوة الذى أشربه فى علبة الورق المقوى . لسحوق شربة الفراخ الذى أذيبه كل يوم فى المياه الساخنة . للأسانسير المزدحم الذى يتوقف فى الأدوار ١١ و١٢ و١٥ . للصفحة الأولى فى «النيويورك تايمز» . لكل تلك الحياة المعلبة التى أعيشها فى نيويورك (وإقامتى مدعوا فى فندق الهيلتون أو فندق بيير أو فى فندق بلازا هى مجرد جملة اعتراضية مؤقتة) . هذه مدينة تعيش بالفيتامينات . إن الإنسان يعيش بالساندويتشات ، نعم . ولكن بالفيتامينات ؟ لا .. لا .. لا ..

❑❑❑

يخطفك ؟ اخطفنى ؟ ألقنى أرضا.. ماذا يعنى هذا ؟ لا أعرف . لغز . تعال مرة أخرى وأخرى . رمز ؟ حقيقة ؟ ربما أحدهما ، أو لا شىء منهما .

ما هذا الذى تقرأه يا تونى ؟

رد أنتونى كوين ، طارحا الكتاب من يده على السرير : هذا حوار من الرواية الجديدة «برتقالات الدم» . إنها رواية طموحة ، كتبها واحد من روائيى الصف الأول فى أمريكا .

– رواية جيدة ؟

– سيئة جدا .. وجيدة جدا .. فى وقت واحد .

قلت : هل تقرأ كثيرا ؟

رد أنتونى كوين : وهل للإنسان قيمة قبل أن يقرأ .. كثيرا ؟

❑❑❑

الغرفة معبأة بدخان السجائر .

أنتونى كوين يقول : لماذا لا أدعوك ، مع فؤاد سعيد ، إلى سهرة غريبة الليلة ؟ سهرة فى ملهى هيبيز ؟ ملهى اسمه «شنب أبوك» ؟!

أدهشتنى الفكرة .

❑❑❑

شنب أبوك .

فــى علم النفس نظرية معروفة قليلا اسمها «نظرية لومبارد» . نظرية تقول إن المتحدث يرفع مستوى صوته تلقائيا فى انعكاس أوتوماتيكى لارتفاع الضجة المحيطة به . ولكن .. مع ارتفاع صوت الإنسان يقل وضوحه .

هكــذا قــل الوضوح فى كلماتنــا ـ نحن الثلاثة ـ رغــم أن المائدة بيننا عرضها ســتين ســنتيمترا . الآن إذا .. لا حوار . لا مناقشــة . لا وضوح . مجرد شــفاه تتحرك . مجرد تهتهة . نحن نتكلم . كل إنســان فى هذا الملهى يتكلم . يرقص . يغنى . يشــرب ويرقص ويغنى من جديد .. بالى هو .. هولابالو .. بالى هو .. هولابالو .. بالى هو .. هولابالو ....

ها نحن نجلس وســط الرقص والضجة وعنفوان الموســيقى . هــا نحن نجلس .. كبارا كالحيــاة . قصــارا كالعمر . ضائعين كالحقيقة . إن أنتونــى كوين غريب أمامى . بالأمس رأيته فظا فى مشــهد للتصوير . فظا . غليظا . جافا . شــجاعا . الآن رقيق .. قابل للكبر كزهرة .. قابل للسخرية كمهرج . إنه الآن يغنى . الآن يغضب . الآن يبتسم . الآن يسخر . الآن يصيــح . انــه يصيح كالراقصين حولنا . الناس حولنا يرقصون ويشــربون . من بينهم يرتفع صوت بربرى .

من داخلى أنا يقفز سؤال : تونى .. المخدرات تبدو منتشرة هنا .. أليس كذلك ؟

– طبعا . طبعا . طبعا .

– هل أنت تتعاطاها ؟

– لا . لأننى أحب أن أضحك وأرقص . ولكننى لا أحب أن أنسحب من الوعى . من الحياة .

– هل تشرب الخمر كثيرا ؟

– أبدا .. نادرا ..

– اسمع يا تونى .. هناك سؤال يتدحرج الآن على لسانى .. ماذا تعتقد أنك تشبه ؟

تراجع أنتونى كوين إلى الوراء وهو يرد مندهشا : أوه .. هذا سؤال مضحك !

قلت : إذن .. أجب على سؤال مضحك .

رد أنتونى كوين مفكرا : أنا .. سيارة ! أعيش فى بيتى وأسرتى وبين أولادى ، لأشحن نفسى بكمية من البنزين والطاقة .. تكفينى للسير فى الحياة لعدة ساعات تالية . ساعات لا أمثل فيها على نفسى ، ولكننى أمثل على الناس ، وعلى المجتمع .

– ما رأيك فى المجتمع .. أى مجتمع ؟

– منافق . المجتمع دائما منافق .

– هل تعيش بصراحتك مع نفسك .. أم تعيش بنفاق المجتمع ؟

– أنا ؟ .. أنا أعيش بنفسى أولا ، ولنفسى أولا . أعيش لنفسى ولأولادى .. هذه قضيتى . هذه قلعتى .

❑❑❑

التليفزيون الملون فى غرفتى معطل اليوم . لعن الله التليفزيون والهيلتون . كل تليفزيون ، وكل هيلتون .

❑❑❑

ذكريات الطفولة معظمها أكاذيب . إننا نتلطف معها . إننا نتخذ فيها ومنها وضعا خاصا . إننا نحتفظ على لساننا بكلمات جوفاء جاهزة عن طفولتنا . كلمات نرددها ونصدقها .. ويصدقها الآخرون معنا . كلمات وذكريات نخصم منها الجراح التى لايمكن شفاؤها . إننا ننسى أننا فى طفولتنا قاسينا وعانينا وتعذبنا . ننسى أن طفولتنا مليئة بالثقوب نسدها . وبضعف نحتقره . وبألم نتناساه .

أنتونى كوين لا ينسى .

يقول : تصور ؟ فى طفولتى ضاع منى حنان الأبوة عندما انفصل أبى وأمى عن بعضهما . فى صباى كنت أدرس نهارا وأعمل ليلا . كهربائيا مرة . سائق تاكسى مرة . أعمل ماسح أحذية مرة . نجارا مرة . ترزيا مرة . عامل أسمنت مرة . وملاكما مرات عديدة .

قلت : الآن أنت ممثل .

قال وكأنه لايسمعنى : ربما . ولكننى لم أتوقف عن الملاكمة . لم أتوقف عن ملاكمة الحياة .. ولم تتوقف الحياة عن ملاكمتى .

سـكوت . الأوراق فى حجرتى ما زالت متناثرة كما هى منذ دخلها أنتونى كوين . زاد عليها الآن .. السكوت .

قلت بعد دهر من السكوت : ماذا كانت أحلامك المبكرة ؟

أنتونـى كوين يتذكر : حلم واحد كبير عشـت فيه وبـه طويلا .. أن أكون كاتبا . لقد التحقت بمدرسـة خاصة لهذا الغرض . بعد شـهر كتبت أربعين صفحة عن يوم كامل فى حياتـى . كان هـذا بطلب من المـدرس . إن كتابتى لم تعجب المـدرس . ولكنها أعجبت أولادى . أنا أحب أولادى .

قلت : وما الفرق ؟ أقصد .. كيف ترى الفرق بين الكاتب والممثل ؟

رد أنتونـى كويـن ـ هذه المـرة بوجه يحترق : أوووووه ... الفارق كبير . فى السـينما مثلا ، على الممثل أن يكون هو الآلة التى يعزف عليها المؤلف .. والمرآة التى تظهر عليها جميع الألوان التى رسمها المؤلف بريشته .

قلت : نعم ، ولكنك الآن ممثل .. أليس كذلك ؟

رد قائلا : طبعا . وإذا لم أكن ممثلا .. فماذا أكون ؟

قلت : ماذا تكون ؟

رد : إنسان عادى له أحلام غير عادية .

– تونى .. تحب أطلب منك حاجة ؟

– طبعا .. طبعا ..

– أنت بالنسبة لى دائما زوربا اليونانى .. أريد رقصة زوربا ..

– تحبها ؟

– أمـوت فيها . أعبدها . إنها تعيد إلـى الشـوق والبسـاطة والرقة والحنان والطبيعة والأعشاب والأشجار وأوراق الأشجار . تعيد إلـىَّ أيضا الألم والعذاب وصوت الكلاب . الكلاب حول زوربا .

❑❑❑

وحشتنى القاهرة .

❑❑❑

فى أحلامى : أنا أرقص . أرقص وأرقص وأرقص وأرقص ـ زوربا اليونانى ـ حاملا فى يده ساندويتش طعمية . أين الطعمية ؟ ضاعت . لقد ضاعت البساطة . بقى فى أذنى صوت الكلاب . لقد استيقظت من نومى باحثا عن الكلاب ـ أو عن البشر .

لا أحـد .

□□□

توقفت لأشترى سجائر من كشك للصحف فى شارع برودواى . بعد لحظة وجدت نفسى أحملـق فى إحدى المجلات مقلبا بعض صفحاتها . عن هوليود تقول المجلة : «المنتجون فى السينما بدأوا يبحثون عن وسائل جديدة لتمويل أفلامهم ، بعد أن بدأت البنوك ترفض تقديم خطابات ضمان لهم . أحد المنتجين حصل على نصف مليون دولار من أحد مشـايخ البترول فى الخليج العربى» !

اشتريت علبة كوكاكولا لأقرأ الموضوع ، ودفعت ربع دولار . الدولار بـ ٦٨ قرشا مصريا . إذن : الكوكاكولا بـ ١٧ قرشا . خراب جيب . تسقط الكوكاكولا . يحيا العرقسوس .

□□□

فكـرة تافهة : عطية يدعونى للعشـاء فى مطعمه الليلـة . عطية مليونير مصرى يملك مطعما مصريا كبيرا اسمه «كليوباترا» فى شارع برودواى . عطية يقول لى تليفونيا : تستطيع أن تدعو أى عدد من الناس معك . كلام اسكندرانية .. مش كلام دمايطة !

هل أدعو أنتونى كوين وفؤاد سعيد من الباطن ؟

□□□

امـرأة وقورة ، تدخل علينا الحجرة فى فندق هيلتون . السـكرتيرة . ذراعاها كفخذى البقـرة . صدرهـا فى حجم الكرنب . إنها تسـتطيع أن تلد جيشـا ، أو ربما قامت بذلك فعلا . مع هذا .. وجهها باسم ومريح . نعمة من الله .

أنتونى كوين يستدير إلـى : هل كنت تسألنى من قبل ؟

قلـت : لا .. لم أكن أسـألك . كنت أتذكر أدوارك التـى أحبها . أتذكر رجل القبيلة العربى فى فيلم «لورانس» . أتذكر الرجل الفرنسـى فى «الحصان الباهت» . أتذكر العمدة الحكيم الأبله فى «سر سانتا فيتوريا» . أتذكر الإنسان البسيط فى فيلم «الزيارة»...

رد تونى : أه .. فى هذا الفيلم قامت أنجريد بيرجمان بدور عظيم .. عظيم ..

قلـت : نعـم ، ولكن .. أنا يعجبنى الرجل الذى يقف بمفرده ضد الأغلبية . لقد كنت رائعا فى هذا الدور . دور الرجل الوحيد أمام أغلبية اشترتها امرأة ..

رد أنتونى كوين : نعم ، نعم .. لاشـىء ولا أحد .. غير المرأة والسـلطة .. يستطيع أن يشترى الناس . ضمائر الناس .

□□□

المساء . الزبائن كثيرون . الطلبات تتوالى . المطعم مزدحم . مطعم «كليوباترا».

أنتونى كوين يطلب العشاء . كباب .

الطرشـى والكباب والموسـيقى والغناء . إن الإسطوانة التى نسـمعها الآن هى من غناء فرانك سيناترا . اسطوانة «غرباء فى الليل» .

أنتونى كوين يأكل وينسجم ويدندن . إنه يدندن على صوت ونغمات فرانك سيناترا .

عطية – ابن البلد صاحب المطعم – يسأله بالإنجليزية : عاجبك الأغنية ؟

أنتونى كوين يرد بسرعة : طبعا . طبعا . طبعا .

عطية يكلمنى أنا بالعربية : أه .. لو يعرفوا ! ألف رحمة عليه .. سيد درويش !

□□□

هارلم . شـارع ١٢٥ . التصوير لم يبدأ بعد . من الدور العشـرين فى العمارة التى يتم التصويـر فيها أسـتطيع أن أرى حى «هارلم» – حى السـود فى نيويـورك – كله بوضوح كامل . كل شىء هنا اسود . الناس والمبانى والأنوار والأحلام .الحياة هنا كابوس طويل لا ينتهى . كابوس أسود .

رجل أسـود قال لى منذ لحظات : «سـيدى .. إذا أجلستنى أنت على مائدتك وبدأت أنـت تـأكل بينما أنا أراقبك بلا شـىء فى طبقى .. هل أقول إننى تعشـيت ؟ إن مجرد الجلوس على المائدة لا يعنى أننى تعشيت .. إلا إذا أكلت شيئا مما فى الطبق . إننى فى أمريكا . ولكن هذا لا يجعلنى أمريكيا . ولدت فى أمريكا ـ نعم ـ ولكننى لست أمريكيا . فى الباسبور أمريكى . فى الحياة .. أنا لست أمريكيا . لست بشرا . لست أى شىء . أنا مجرد رجل أسود» .

قلت : ألم يقل الزعيم الزنجى «مالكولم إكس» هذه الكلمات ؟

– نعـم . كلنـا هنا «مالكولم إكس» . بفقره .. ولكن بغير فصاحته . نحن سـود . نحن بشـر مزيفون . هكذا يعتبرنا المجتمع الأمريكى . نحن – بالكثير – بشر صغار . أنا رجل صغير .

قالها الرجل ، وانصرف . لقد بدأ التصوير . بدأ الفيلم .

❑❑❑

«.. ولكن ، لماذا تسألنى هذا السؤال بالذات ؟ هل فى تصرفاتى ما يوحى بأننى مريض نفسيا ؟»..

قلـت لأنتونـى كوين : أبدا أبدا . كل المسـألة أننى قرأت أمـس كتابا فى علم النفس للدكتور «سـيدنى برنس» يتحـدث فيه عن خبرته فى معالجة نجوم السـينما فى هوليود نفسيا .

رد أنتونى كوين : أه .. أعتقد أن الحال الآن أحسن كثيرا . الناس الآن أصبحوا أفضل قليلا فى هوليود . أقل إدمانا للخمر والمخدرات . أكثر حرية . أقل شذوذا . المخرجون أيضا تطوروا . لم يعد هناك الصراع الذى اشتهرت به هوليود من قبل . لم تعد هناك فجوة الكاتب العظيم الراحل «سكوت فيتزجيرالد» . فجوة كنت تلمسها فى هوليود بين الفن والتجارة .

– أنت شخصيا .. فنان أم تاجر ؟ أراك فى هذا الفيلم تقوم بالدورين .. ممثل ، ومنتج منفذ ..

ابتسـم أنتونى كوين ، وهو غالبا يبتسـم ، ثم قال : أنا فنان أولا .. المال عندى فى الدرجة العاشرة .

– لماذا لا تعود إلى الإخراج ؟ ألم تعمل من قبل مساعدا للمخرج الكبير الراحل سيسيل دى ميل ؟

– نعم . ولكننى لا أستطيع الآن أن أكون مخرجا . مستحيل . مستحيل السيطرة على الممثلين . ليس لدى الصبر . لكن ـ افتراضا ـ لو عدت إلى الإخراج .. تعرف أول عمل أعمله إيه ؟ أضرب كل الممثلين بالرصاص ..

❑❑❑

الرصـاص . المشـهد الذى يجـرى تصويره الآن فـى فيلم «شـارع ١١٠» يبدأ بإطلاق الرصاص . ثم يأتى دور أنتونى كوين .

سألته : تونى .. لماذا تمثل ؟

• تحركت عيناه بسرعة وغيظ ودهشة وضحكة وإجابة : سوف أعطيك ثلاثين ثانية لكى تفكر فى سؤال أفضل ..

قلت : لن أفكر فى سؤال أفضل .. لماذا تمثل ؟

تـردد قليـلا وفكـر كثيرا ثم : أعتقد أننـى أردت فى البداية أن أهرب من نفسـى .. فمثلت .

– والآن ؟

– الآن .. أنا : نفسى . الدنيا كلها لاتساوى عندى حلما عاش معى منذ الطفولة . لقد حلمت دائما بمنزل . بأشـجار . بأسـرة . وفوق كل شىء .. بأطفال . عندى الآن سبعة . أربعة من زوجتى الأولى وثلاثة من يولندا ... زوجتى الحالية . إن الدنيا كلها لا تسـاوى واحدا من أطفالى . ان طفلى هو أنا . هو نفسى . هو مرآة أرى فيها نفسى . ان الدنيا كلها لاتسـاوى صورة لابنى أضمها إلى صدرى وأنا أموت . إن البنت تعطينى شـعورا بالفرحة . الولد يعطينى شعورا بالاستمرار و ...

بارى شير – مخرج الفيلم – يصيح : تونى .. احنا جاهزين للتصوير .

❑❑❑

التصوير . الصمت . جاهزين . السيناريو . المشهد ١٠٦

ضابـط البوليـس كابتن «ماتيللـى» – أنتونى كوين – يتحرك . إنه ببسـاطة يقف فى الظلام . لايلحظ شـيئا وليس لأى شـىء رد فعل على وجهه . ولكـن التعبير على وجهه لايسـتمر حادا لمدة طويلة . إنه يبدو كالغريق . غريق وسـط حرب العصابات بين السـود والبيض . إنه غير متأكد من أى شـىء . نظراته تتحرك ببطء . بسـرعة . ثم : بسـرعة البرق . إنه يطارد . يتناول مسدسه ويطارد . يقذف بقبعته ويطارد .. ستوب .

سألته : كيف حالك الآن ؟

رد متهالكا : سعيد جدا جدا جدا . مرهق جدا جدا جدا .

❑❑❑

الجـو صحو بالنسـبة لنيويورك ، وبالنسـبة لشـهر مايو . الدرجـة ٦٧ فهرنهايت . نسيم .

سـألت أنتونـى كويـن ونحن نتمشـى فى ظلام حديقـة " البارك " فـى نيويورك : تونى .. لماذا تصر دائما على أن ترتدى الكرافتة والجاكيت ؟ الجاكيت .. نعم .. ولكن .. الكرافتة ؟!

أنتونى كوين يضحك .. ويضحك .

و .. قلـت : يخيـل لى أنـك لا تخلع الكرافتـة ، حتى وأنت تنام مـع زوجتك فى السرير !

أنتونى كوين يضحك ويضحك ويضحك .

❑❑❑

النوم . الأحلام . أحلام بأثر رجعى . أحلام تعيد إلـى أجزاء نسـيتها من بعض أفلام أنتونـى كوين أفلام أخرجها له فيلليني : لورانس .. زوربا اليونانى .. أحدب نوتردام .. مدافـع نافارون . إن الفيلم الذى صحوت عليه هو «سـر سـانتا فيتوريا» . المشـهد الذى فتحت عينى عليه هو الذى صاح فيه فيلسوف القرية الإيطالية هائجا : «اسمعوا يا مدينة الأوغـاد .. أنتم لا تعرفون معنى أن يموت موسـوليني . إنه أعظم يوم فى تاريخ إيطاليا . فبعد عشرين عاما لن يكون هناك غش لأول مرة» .

ولكن القرية الصغيرة لا تبالى . أن يموت موسوليني ، أو لا يموت .. شيء لايهم كثيرا . إن المهم هو النبيذ الذى تعيش القرية على صناعته . هذا نبيذهم . هذه حياتهم . هذه مصلحتهم .

ثـم .. تحـرك الجميع أخيرا ، وتحرك معهم أنتونى كوين فى بلاهة نموذجية ، هاتفا ضد الديكتاتور الراحل . ساعتها قالت له زوجته الساخطة عليه دائما : أنت دائما هكذا .. يعيش موسـوليني .. يسـقط موسـوليني .. نعم .. لا .. لقد كنت دابة لمدة ١٦ سنة . دابة طوال حياتك معى !

❑❑❑

أشرقت الشمس فى نيويورك مبكرا . أشرقت حولى . لم تشرق فى داخلى .

❑❑❑

أعجبتنى تشبيهات أنتونى كوين اليوم . أعجبتنى كلماته .

كلماته هى : «الأسلوب الأمريكى فى صناعة السينما هو كالأسلوب الأمريكى فى حرب فيتنام : انفاق ضخم ، فى غير موضعه . أعمال مريحة ، وتسخير للتكنولوجيا ، ولكن مع الابتعاد عن الواقع الإنسانى . ان كلا من لعبة الحرب ولعبة السينما لها واقعها الخاص بها طبعا . كل منهما تدار ببنادق حقيقية وكاميرات حقيقية وناس حقيقيين . ناس يحبون فنهم فى السينما ، وناس يحيون بلدهم فى فيتنام . وهؤلاء يعملون بتصميم . هؤلاء يريدون استقلال بلدهم . هؤلاء يدافعون عن أرضهم . وأولئك يدافعون بصلابة أيضا .. يريدون إنقاذ صناعتهم من الانهيار . فى هذه الصناعة ، هذه السينما ، نحن المثلين .. هم اللاعبون . ونحن أيضا : أوراق اللعب !».

كلمات أنتونى كوين تفتح شهيتى لمقارعته أفكارا بأفكار .. عن السينما ، وحرب فيتنام . ربما فى جلسات تالية أراجعه فى آرائه . لكن فى هذه اللحظة تحديدا : النوم سلطان .

❑❑❑

اكتشاف : أحسن المثلين هم الذين يتقمصون الصفات البارزة لشعوبهم . من الذى يفوق فى أمريكيته سبنسر تراسى وهنرى فوندا وسيدنى بواتييه ؟ من الذى يفوق فى إيطاليته آنا مانيانى ؟ من الذى يفوق فى مصريته محمود المليجى وحسين رياض وعبد الوارث عسر ؟ من الذى يفوق فى صدقه وبساطته أنتونى كوين ؟ انه مكسيكى الولادة ، أمريكى الجنسية ، ولكنه فى الواقع بلا جنسية . إنه فنان صادق . هذا يكفى . يكفى . يكفى .

❑❑❑

انتباه . النقود تتسرب من جيبى بسرعة العرق الذى يتصبب الآن من وجهى . الجو حار جدا جدا جدا . فى القاهرة ، وفى مثل هذا الوقت ، يكون الجو حارا أيضا . ولكن الكوكاكولا ليست بـ ١٧ قرشا !

❑❑❑

– هالو ؟

– هالو .. مين ؟ يولندا ؟ حبيبتى يولندا .. فورا .. فى انتظارك .. فى انتظار صدرك لأرتمى عليه .

ثم : ارتمى أنتونى كوين على السرير .

– ماذا جرى ؟

– زوجتى .. لقد وصلت حالا إلى المطار .

– لماذا لم تحدثنى عن زوجتك من قبل ، وعن حياتك الشخصية عموما ؟

– لأننى أكره التحدث عن حياتى الشخصية . هذه زوجتى . هذه أسرتى . إنها ملجئى من الحياة والناس والمجتمع . إذا تناثرت حياتى ، إذا شرختها المشاكل ، امتدت الشظايا إلى عقلى وقلبى . إلى فنى . مع زوجتى ، مع نفسى ، أكون أمينا . أكون صريحا . أكون صادقا . هذا أفضل من أن أكون عاقلا . هل تدرك ما أعنيه ؟

– تماما .. تماما .

❑❑❑

رأيت فؤاد سعيد اليوم . متوترا ثائرا أحمر العينين . معه الحق . حينما تزيد تكاليف تصوير المشاهد الخارجية للفيلم فى نيويورك سبعين ألف دولار ، فهو الوحيد ـ باعتباره منتجا ـ الذى تحمر عيناه .

❑❑❑

حجرتى . حقيبتى . تحياتى .

أنتونى كوين يدخل . يتكلم : هل لى أن أعتبرك صديقى فى القاهرة ؟ هل لى أن أهديك هذه ؟ نعم .. أنت سمعتها عندى ومعى عشرين مرة طوال الأيام التى قضيناها معا ولاحظت اندماجك معها . ولكننى أريد من هذه الإسطوانة أن تذكرك بصداقتى كلما سمعتها فى القاهرة . الآن سأسمعها معك لآخر مرة قبل سفرك.

الإسطوانة . الأغنية .

«سوف أحلم يا صديقى حلما مستحيلا ..

سوف أحارب الخصم الذى لا يقهر
وأحتمل الحزن الذى لا يطاق
وأتقدم حيث لا يجرؤ الشجاع
وأصحح الخطأ الذى لايمكن تصحيحه
وأحب من بعيد ... بصفاء وعفة
وأحاول حينما تضعف ذراعاى
وألمس النجوم البعيدة فى السماء
.. هذه ، يا صديقى ، "قضيتى".

obeikandl.com